
قطار الصعيد
رواية
يوسف القعيد
دار الشروق

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م

القاهــرة : ٨ شــارع ســيبويه المصــرى -
رابعــة العـدوية - مـدينـــة نصـــر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فـــاكـــــس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

يوسف القعيد

قطار الصعيد

دار الشروق

B.HAMDAN
29/8/08

إلى نصار عبد الله..

في ضيافته تعاملت حواسي الست
مع الصعيد. منذ ربع قرن لثاني
مرة. بعد اللقاء الأول الذي تم من
خلال «رحلة الأقصر وأسوان» التي
كانت جزءاً من مناهجنا التعليمية
في الستينيات الخضراء..

١ ـ المهمـــة

يا وابور الســـاعــة اتناشـــر

يا مـــجـــبل ع الصـــعــيـــد

سلم لى ع الحـــبـــايب

ومـــحـــمـــد ولدى يا بوى

يا جـــريد النخل العـــالى

طـاطـى ورد الســــــــلام

يا باجـــور الســاعـــة اتـنـاشـــر

يا مـــجـــبل ع الصـــعــيـــد

. . كان مدير التحرير مشغولا حين دخلت عليه مكتبه، كان يرد على تليفون، ويطلب من المتحدث فى التليفون الآخر الانتظار قليلا. وأمامه كان ماكيت العدد الجديد، مفروداً على آخره. وقفت طويلا، وفكرت فى الانصراف بعد أن طال الوقت، وشعرت بالإهانة؛ لأن هذا الرجل أرسل فى طلبى وهو مشغول بهذه الصورة.

تنبه لوجودى حين هممت بالانصراف، فطلب منى الجلوس. جاءت جلستى فى مواجهة امرأة فاتنة، كانت تدخن ببطء، وكأنها تمص السيجارة ولا تشربها.

انتهى المدير من الحديث فى التليفون الأول وكان أحمر اللون وكانت معظم ردوده بكلمات: أفندم وحاضر وتحت أمرك. ففهمت أن الذى يتحدث أعلى منه، وأنه يمثل بالنسبة له سلطة ما، وأنه يعطى الأوامر ويشرح التعليمات ويبلغ السياسات.

أمسك مدير التحرير بالتليفون الثانى، وكان أسود اللون مثل كل التليفونات الأخرى، وراح يشخط وينتر ويهدد ويتوعد، وأنهى المكالمة بسرعة وقبل أن يمسك بماكيت العدد الجديد شاهدنى. نظر إلى مستفسراً:

ـ أى خدمة؟!

قلت له :

ـ أنت الذى طلبتنى .

حاول أن يتذكر ما طلبنىَ من أجله ، كان قد نسى ، وقبل أن يطلب منى الحضور بعد قليل ، حتى يكون قد تذكر الأمر الذى طلبنى من أجله ، قالت ضيفته الفاتنة ، وهى توجه كلامها له . كانت تتذوق الكلمات بين شفتيها قبل النطق بها :

ـ جريمة العصر .

خبط رأسه بيده ، نظر لضيفته نظرة فيها إعجاب ووله :

ـ كدت أنسى .

حول وجهه نحوى ، قال لى وهو يستخدم ملامح وجهه فى الحديث :

ـ خبطـــة !

لم أجد لدى رداً على الكلمة ، فاكتفيت بالصمت ، قال هو :

ـ جريمة . ستشد إليها القراء بصورة لم تحدث من قبل ، فيها كل مكونات الإثارة ، جنس ودين ، تبقى السياسة ، والصحفى العبقرى يمكن أن يرشها على وجه أى جريمة .

تساءلت وأنا مازلت فى وقفتى ، أقلب نظرى بينه وبين ضيفته الفاتنة . لماذا يبدى الأستاذ ميشيل شنودة كل هذا الاهتمام بالموضوع؟ هل له مصلحة ما؟ لماذا أستبق الأمور من الآن؟ سأسافر وهناك

سأعرف، ابتداء من أطراف الجريمة وانتهاء عند أهالى البلد. لا شيء يبقى سراً إلى الأبد. قليل من الصبر وسأعرف. المهم أن أظل مسكونا بهذا القدر الجميل من الفضول وطرح الأسئلة على الواقع والناس والأشياء.

أمسك قلمه وأحضر ورقة وكتب فيها بعض الأسطر وسلمها لى. كانت تعليمات للإدارة المالية بصرف بدل سفر لى حتى أقوم بالمهمة المكلف بها. كان من المفروض أن أكتب هذه الورقة له، ويكتفى هو بوضع توقيعه أسفلها. ولكنه كان يريد الانتهاء من الأمر بأسرع ما يمكن.

طلب منى السفر فوراً إلى البلد الذى وقعت فيه الجريمة لكى أحققها وأعود. قال لى مطلوب منى التوجه فور وصولى إلى البلد إلى قسم الشرطة أو المركز، ومقابلة الضابط أو فريق رجال المباحث، ثم الذهاب إلى وكيل النيابة، الذى يحقق فى موضوع الجريمة، ومحاولة الوصول إلى الخيط الأساسى فى الجريمة، ووضع يدى على أطرافها الأساسيين: الجانى والمجنى عليه وشهود الإثبات وشهود النفى وجسم الجريمة، والأدوات المستخدمة والزمان والمكان، الذى هو مسرح الجريمة.

طلبت منه مصورا لكى يسافر معى فى هذه الرحلة، ولكنه تعلل بأن ظروف المجلة المالية ليست على ما يرام. ولذلك أمامى حل من حلين، إما أن أصور بنفسى، أو أن أحضر صوراً من الذين سأقابلهم، طلبت منه سيارة أسافر بها. وقلت مبررا طلبى الذى لم تسترح ملامح

وجهه لدى سماعه إن وجود سيارة معى أفضل، يوفر لى قدراً كبيراً من حرية الحركة، ويجعلنى مستقلا فى حركتى، بعيداً عن الأطراف المباشرة للجريمة.

رفض أن يعطينى سيارة بحسم. بعد الرفض عدد الأسباب التى تجعله يرفض. قال إنه لا توجد سيارات فى المؤسسة. كدت أن أنصرف، لولا أنه أكمل، أنه حتى لو كانت لديه سيارة فلن يعطيها لى. لطول المسافة ولأن استخدام المواصلات أوفر. كذلك فإن استخدامها يجعلنى أقترب أكثر من الناس، وهذا يجعلنى أتجول فى الشوارع الخلفية لما جرى، وقد أعرف الحقيقة كلها من جملة عابرة تقال فى عربة قطار أو أتوبيس أو تاكسى أو حنطور، أو على مقهى من المقاهى.

توقف عن الاسترسال، قال إنه حزين لأن اهتمامى بالموضوع بدأ بالمصور والسيارة، أى أننى قبل أن أشغل نفسى بالحكاية، فكرت أولا فى راحتى الشخصية. قلت له إن الاهتمام بالأدوات يعنى أننى شغلت نفسى بالقضية فوراً. بدأ يتكلم، يحكى لفاتنة مكتبه عن بطولاته وصولاته وجولاته وتحقيقاته، كان يعيد ويزيد فى كلام سمعته منه قبل ذلك ألف مرة.

استطالت الحكاية على لسانه، وتلكأت الكلمات، حتى استطعت، فى المسافة ما بين جملة وأخرى، أن أستأذن وأتركه يكمل بطولاته العظيمة للضيفة الفاتنة، التى مازالت السيجارة بين شفتيها، وإن كانت قد انطفأت، نادى علىَّ من جديد. طلب منى السرية التامة فى تغطية هذه الجريمة التى يمكن أن تكون جريمة العصر كما قالت

الأستاذة . وألا أقول موضوعها حتى لزملائى ، فقد تتسرب الحكاية إلى مجلة أو جريدة أخرى ، خاصة وأن موضوعها مازال سريا حتى الآن ، وقد عرفه هو من مصادره الخاصة .

اتجهت إلى مكتبى ، وفى الطريق قابلت زميلاً يعمل فى الدول العربية منذ سنوات ، ولا يحضر إلا من أجل مد إجازته سنة أخرى . وفى كل مرة ألومه وأعاتبه بسبب كل هذا الاغتراب عن الوطن . أقول له إن القضية الجوهرية هنا ، ويرد على بسؤال محدد : هل حدث جديد فى غيابه؟ وأتوقف لحظه أبدو فيها مجهدا ومتعبا ، أفتش فى الذهن عن هذا الجديد ، الذى حدث خلال عام . فلا أجد ما يمكن قوله .

يقول الزميل القادم من ديار البترودولار ، والذى يستعد للعودة إليها ، إن التراكم فى كل بلاد الدنيا يعنى أن ثمة أمراً ما من الممكن أن يحدث . ولكن التراكم هنا لا يعنى إضافة ، ولا يعنى إمكانية حدوث أمر ما .

وكما نلتقى بالأحضان والقبلات ، نفترق بالأحضان والقبلات ، ولكنى ألاحظ أن هذه الأحضان والقبلات تصبح عاما بعد عام ميكانيكية ، وأن الدفء الإنسانى يتبخر منها .

اتجهت إلى مكتبى ، بعد أن اعتذرت للزميل العائد من أجل أن يسافر من جديد ، قلت له إن لدىَّ عملاً مهمًا وعاجلا ، وإلا كنا قد جلسنا معًا فى مكتبى ، نشرب الشاى وندخن السجائر ، ونتكلم . هو يكلمنى عن بلاد الغربة وأنا أكلمه عن . . ، قبل أن أكمل الجملة . قال هو :

ـ غربة الداخل .

صححت جملته . قلت له إن الغربة تقال عن الخارج . أما فى الداخل ، فيقال اغتراب . قال لى إنه لن يختلف معى ، وإنه ليس لديه وقت من أجل الجدل والنقاش . قال : اغتراب الداخل .

قبل أن أتركه ، قال لى إننى أبدو دائما مشغولاً بأمور مهمة وخطيرة ، ولكنى لن أصبح مهمًا وخطيراً مهما انشغلت . أقسمت له إن مسألة الأهمية والخطورة لا تشغل بالى ، ولا تشكل واحدة من اهتماماتى . قال لى إننا جميعا نتكلم هكذا . مع أن مسأله الأهمية والخطورة تكاد أن تكون أرقنا وقلقنا وجـرحنا الذى لن يندمل . حاولت الخروج من المناقشة الكئيبة . فتضاحكت قائلا له إنه أصبح شاعراً فى بلاد الثروات . فقال لى وهو يتضاحك معى :

ـ العقبى لك .

قلت له وأنا أتحرك :

ـ لن أرحل أبدًا .

مشيت ، وأنا متأكد أنه يقول لنفسه وهو يجفف قبلتى له :

ـ فلاح ومتخلف .

فى مكتبى جمعت أوراقى ، نحيت أكواب الشاى وفناجين القهوة الفارغة جانبا ، جمعت جرائدى ، وفتحت درج مكتبى ، واخترت مجموعة من الأقلام لكى آخذها معى فى رحلتى .

أعطيت الساعى ورقة بدل السفر . ذهب وعاد إلىَّ . قال لى إن

ما كتبه مدير التحرير ناقص، لا بد من كتابة اسم الموضوع والمكان المسافر إليه، والمدة التى سأقضيها هناك، بخلاف يوم السفر ويوم العودة؛ حتى تصبح السفرية مهمة رسمية. فلو حدث لى - لا قدر الله ولا كان - مكروه خلال السفرية تصبح المؤسسة مسئولة عنى.

ابتسمت. ها هى الرحلة تبدأ قبل أن تبدأ. للروتين فوائده وللبيروقراطية مزاياها. فى الرحلة نسبة من المخاطر إذن، ولا بد من الاستعداد لها. أكملت البيانات المطلوبة من ذاكرتى أو الورقة التى كتبها مدير التحرير، وجلست فى انتظار الانتهاء من الإجراءات حتى أصرف بدل السفر. ظروفى لا تسمح لى بترف مواجهة مثل هذه الأمور الطارئة. تأكدت من جديد من وجود الورقة المدون بها اسم المدينة التى وقعت فيها الجريمة معى.

خرجت من مكتبى. نظرت إلى المكاتب الأخرى، تطلعت إلى الزملاء والسعاة وإلى أوراق البروفات التى تملأ الطرقة. مر بجوارى عامل من عمال المطبعة فاستنشقت رائحة الحبر، والورق الخارج من المطبعة دافئا. تفتحت رئتاى على الرائحة. قلت لنفسى: هذا أفضل وداع للمؤسسة.

فى الشارع - أمام الدار - وقفت أرسم خطتى للعودة إلى المنزل والاستعداد للسفر. أثناء وقوفى لمحت الضيفة الفاتنة التى كانت فى مكتب مدير التحرير، كانت تقف فى الشارع أمام المؤسسة، وبعد قليل حضرت لها من جراج المؤسسة إحدى السيارات لكى توصلها. تهادت السيارة ببطء. وقفت أمامها، واندفع المنادى لكى يفتح لها الباب. جلست فى السيارة، بالتحديد فى المقعد الخلفى وهى تنظر

نحوى مبتسمة. وكادت أن تحدث أزمة فى الشارع؛ لأن السيارة ظلت واقفة، حتى أخرجت الضيفة من حقيبتها مبلغا من المال أعطته للمنادى. بقشيش ربما يساوى بدل السفر الذى حصلت عليه. كانت تتصرف بقدر كبير من الأبهة والعظمة وربما الخيلاء.

رأيتها هذه المرة وهى واقفة، قبل أن تركب السيارة، كانت فارعة الطول. عود سرو. قلت لنفسى وأنا ألتهمها بنظراتى الجائعة: نصف جمال المرأة فى طولها.

بعد أن رمحت بها السيارة، اقترب منى منادى السيارات، قال لى إن الست الهانم، ستعمل معنا، ستصبح زميلة لى. تساءلت: صحفية؟! شوح فى وجهى: مندوبة إعلانات. سألنى إن كنت أعرفها. قلت لا. استغرب حالى. تساءل: ومن الذى لا يعرفها فى البر كله؟ زوجة المطرب المشهور.

تلون النهار بلون التراب. سألنى المنادى إن كنت سأستقل تاكسيا فى هذا اليوم. ضحك وهو يقول: كنوع من الترفيه. أخبرنى أننى صرفت مبلغا من المال. لم يكن يسألنى. قال إن إخبارية وصلته منذ قليل أن معى الآن ثروة. قلت لنفسى الأرض الشراقى فقط هى التى يشم أصحابها رائحة الماء قبل أن تصل قطرة واحدة منه. لظهور الفلوس حكايات فى مؤسستنا.

قلت له إننى سأعود إلى بيتى مثل كل يوم. تركته وانصرفت. كانت سيارة الفاتنة قد غابت عن نظرى، وكان الطريق أمامى طويلا، أكثر من طويل، كان علىّ الذهاب أولا إلى محطة القطار، حتى أحجز تذكرة فى أول قطار يتحرك فجر الغد إلى الصعيد، قبل العودة إلى بيتى.

٢ـ السفر

يا وابور قل لى

ورايح على فين

يا وابور قل لى

وحا تجرى منين

يا وابور قلى

. . فى الخامسة صباحًا كنت أقف فى الشارع الذى أسكن فيه، باحثًا عن تاكسى يوصلنى إلى محطة السكة الحديد. أحب القاهرة فى مثل هذا الوقت. الليل لم يمض والنهار لم يولد بعد. الناس نيام فى أسرتهم والمدينة مغلفة بستائر الصمت. تبدو نظيفة وكأن الليل قد غسلها بحنو. السماء ستارة مسدلة، والسحب المتناثرة فيها نظيفة مثل الغسيل المنشور.

إن بقايا الليلة الماضية وفضلات الأيام التى مضت لا تقلل من بهاء الشوارع فى هذا الوقت. إن طل الليل وندى الفجر يكسبان حتى صفائح الزبالة نوعًا من الجمال. ولا يبقى أى أثر للتراب على الأرض، ولا العنكبوت فى زوايا البيوت المهجورة.

فى هذا الوقت المنسى والزمن المهجور، فى الأجزاء الأخيرة من الليل، ولحظة الفجر الندية، أشعر أننى أمتلك هذه المدينة. إنها مدينتى وإننى ابنها وإن بيننا صلة رحم من النوع النادر. تخلو الشوارع من الناس ومن الغبار ومن الضجيج المكتوم.

كنت قد استيقظت مرهقًا ومتعبًا، عندما انطلق صوت المؤذن من ميكروفون قريب من البيت يؤذن لصلاة الفجر. الصلاة خير من النوم، مع هذه الكلمات استيقظت، وإن كنت أعاود النوم مرة أخرى. أما اليوم فقد بقيت مستيقظا استعدادا للسفر. رتبت البيت

جيدًا، أغلقت النوافذ، وضعت علامات خلف الباب مباشرة، فى أول الصالة؛ حتى أعرف إن كان هناك من دخل البيت فى غيابى.

لا أعرف عدد الأيام التى قد أقضيها فى رحلتى، خاصة وأننى عدت إلى مدير التحرير، وأقترحت عليه مادامت السفرية بعيدة، ألا أقتصر على الجريمة التى كلفنى بها. قلت له إننى أقترح عمل بعض الموضوعات الأخرى. قال لى إنه موافق على الاقتراح الجديد والإضافى لأسباب اقتصادية.

طلبت منه أن نتفق على بعض الموضوعات الأخرى. نظر إلى ساعته وقارن الرقم الذى كانت تشير إليه عقاربها بالموعد الذى يجب عليه حضوره. وعندما أدرك أنه لا يوجد لديه وقت، قال لى: إنه يترك هذا الأمر لتقديرى الشخصى وإنه يثق فى هذا التقدير. انصرف وهو يوشك أن يتكعبل فى هرولته، بعد أن اعتذر للفاتنة. قال لها إن المكان مكانها والبيت بيتها. لم أدرك مغزى الكلام إلا عندما تكلم معى السايس عن الهانم.

أخذت معى غيارات وملابس تكفى أسبوعا. وأخذت بعض الكتب التى أحب قراءتها؛ لكى أسلى الوقت فى رحلتى الذهاب والعودة. وكاميرا صغيرة وكل ما معى من المال.

كان الأسبوع يشكل حدا أقصى للمدة التى يمكن أن أقضيها فى هذه الرحلة. كنت أشعر أننى على أبواب مغامرة فيها إثارة جديدة. وكنت أتمنى قضاء أكبر وقت بعيدا عن المدينة، حتى أخرج من الوضع النفسى الذى أوصلنى إلى حالة قريبة من الأزمة.

لم أترك خبراً عند أحد عن سفريتى. شعرت وأنا أخرج من البيت أننى أنسل من أيام عمرى ومن لياليه، وأننى أخرج من إيقاع مكرر ورتيب. الخروج الصباحى المبكر من البيت ينسينى حالة التعب والإرهاق التى أشعر بها بسبب سهر الليلة الماضية.

مرت بى سيارات أتوبيس، تجرى بسرعة، تهز الشارع والبيوت، متحركة من الجراج إلى المحطات. ما أنا مقبل عليه سفر داخلى، لا يعد سفراً فى نظر البعض، ولكنه بالنسبة لى سفر، وأى سفر؟ يسبب لى حالة من القلق والتوتر، تجعلنى عاجزاً عن الاستمرار فى إيقاع حياتى السابق. يبدو الوقت مثل جبل يكبس على نفسى، لا أعرف كيف أتصرف فيه. اضطرب. حتى إقبالى على الطعام يقل، وقدرتى على هضمه تؤثر عليها حالتى. أنظر إلى نفسى كما لو كنت إنسانا آخر، أراقبه ولكن من بعيد.

بالقرب منى بعض الباعة الذين خرجوا فى هذا الوقت. بائع لبن، بائع خبز يحمل الأرغفة الساخنة التى يبدو لرائحتها حضور قوى فى هذه الساعات البكر. ما من مرة خرجت فيها من بيتى فى هذا الوقت إلا وتمثلت قول أمى: ساعة الفجر رزقها واسع.

أنظر إلى من يعملون فى هذا الوقت وكأنهم ملائكة بشكل أو بآخر. يصافحون بكارة المدينة. ويتنفسون هواء طازجًا لم يلوثه أحد بعد. ولأن وجود التاكسى نادر فى هذا الوقت من الصباح؛ خاصة فى المنطقة النائية التى أعيش فيها. ركبت أكثر من أتوبيس حتى وصلت.

فى المحطة جلست فى بوفيه الوجه البحرى، شربت شايا وتناولت

بعض السندوتشات، قبل أن أعبر إلى الناحية الأخرى. حيث تقف القطارات المتجهة إلى الصعيد، لأنه لا يوجد بوفيه علىَ الرصيف الذى تقف فيه قطارات الصعيد.

أثناء انتقالى إلى رصيف قطارات الصعيد، اشتريت الجرائد الصادرة صباح اليوم كلها، وكذلك المجلات التى كانت موجودة عند بائع الصحف. نظر إلى بدهشة وكأننى مهاجر أو على سفر من مصر كلها.

اكتشفت أن السفر - بصرف النظر عن المجلة والمهمة المكلف بها - فرصة نادرة للخروج من حالتى التى وصلت إليها، ابتعد فترة من الوقت، وأهرب من سجن المكان، ومن هناك أحاول رؤية حياتى من جديد. وأفكر فى حالى، وأبحث عن نقطة بدء تخرجنى من الوضع الذى أعيشه منذ فترة. جاء السفر المناسب فى الوقت المناسب وإلى المكان المناسب. على أن أحوله إلى رحلة للعلاج والاستشفاء. وإلا سأكون مثل الذى ذهب البحر وعاد عطشانًا.

وضعت حقيبتى فى كتفى الأيمن. والكاميرا(*) فى الكتف الأيسر. وفى يدى اليمنى كانت تذكرة القطار التى حجزتها مساء الأمس بعد خروجى من المجلة وقبل عودتى إلى البيت. وفى يدى اليسرى مجموعة الجرائد والمجلات التى اشتريتها وأحد الكتب التى أحضرتها معى، أخذته فى يدى والكتب الأخرى استقرت فى قاع الحقيبة، واتجهت إلى القطار.

(*) اكتشفت بعد وصولى الصعيد صعوبة استخدامها، خاصة إن كان الإنسان يصور مشهداً فيه امرأة. كانت متاحة فقط فى الأماكن السياحية. وعندما تمثل الآثار المشهد الخلفى للصورة.

تأكـدت أن الرقـم المدون خلف التـذكـرة هو نفـسـه المدون على الكرسى. وضعت حقيبتى فوق رف الحقائب. وعلقت الكاميرا فى مسمـار بالقرب من النافـذة. ووضعت الجرائد والمجلات فى شبكة موضوعة أمامى. جلست فوق الكرسى وحركته حتى ضبطته على الطريقة التى تريحنى فى الجلوس، كنت سعيداً لأننى حجزت كرسيًا بجوار النافذة.

تحرك القطار، خرجنا من مبنى المحطة المسقوف، وبدأت الشمس تفرش المكان الذى يجرى إلى الوراء. اكتشفت أن زجاج النافذة مثبت ولا يمكن تحريكه فحزنت، كنت أتمنى أن أستنشق أول هواء يأتى من خارج القاهرة. كنت أريد أن أملأ به رئتيى وأن أتذوقه على مهل.

كان أول خاطر فى ذهنى هو حساب منذ متى لم أسافر؟ لم أخرج من هذه المدينة؟ اكتشفت أن المسافة الزمنية بعيدة، أيام وأسابيع وأكثر من شهر. لا أتصور كيف حدث هذا. قررت مناقشة الأمر مع نفسى، وتنظيم أوقات سفرى وأن تكون متقاربة.

حـاولت أن أعـيش الخط الفـاصل بين المدينة التى أجـبـرت على العيش فيها، والريف الذى انتزعت منه. هأنذا عند المنطقة التى تنتهى عندها المدينة وتبدأ عندها أولى القرى. عشت تدرج المدينة الذى يبدأ من الأحياء الفاخرة ويصل إلى أطرافها، حيث أحزمة البؤس ومدن الصفيح والخيام التى تحيط بها من كل جانب.

كنت أرى الصور المتلاحقة بسرعة دون أى صوت، أشاهد تحرك الأفواه فقط. وحركة السيارات. شاهدت البيوت المغلقة. والنوافذ المواربة، والبلكونات فيها الغسيل المنشور، وشعرت بالجوع رغم أننى

تناولت إفطارى فى بوفيه المحطة عندما شاهدت عربات الفول على نواصى الحارات الضيقة. وحولها بيوت وحوارى وزحام بشرى.

ثم تأتى الزراعات متناثرة بين البيوت. أخيراً كنت قد تعبت من النظر عندما جاءت الخضرة. بحر يصل إلى آخر الشوف من الزراعات الخضراء. يبدو الأفق من بعيد بشكل نصف دائرى مركزه القطار. رحت أشرب المرئيات أمامى. شاهدت حقولا لا نهاية لها، تخلو من الناس الذين يعملون طول النهار. وبعد الحقول طريق أسفلتى تجرى عليه سيارات قليلة، خاصة فى هذا الوقت، وبعد الطريق نهر صغير، وبعد النهر حقول أخرى وفى النهاية سلسلة من بحار الرمال.

يتراجع النهر الصغير، وأرى النهر الكبير، قلوع المراكب الممتلئة بالهواء ترفرف كالغسيل المنشور. وفى مقدمة أحد المراكب كان هناك بحار يغنى. شاهدت انتفاخ رقبته والعروق النافرة فيها، ولكن الصوت لم يصلنى. خمنت إنه يغنى عن غربة الروح والاشتياق للأهل والأحباب والديار.

صاح أحد الجالسين بالقرب منى. أول الصعيد. نظرت إلى الخارج، أحسست برهبة مفاجئة. ليست رحلتى الأولى ولن تكون الأخيرة ولكنى أقابل هذه البلاد، لأول مرة بتلك الطريقة الاحتفالية. ها هو الصعيد أمامى. أول أرض فى الكون، كون العالم البعيد، انحسر عنها الماء الأول. الماء الذى رأى سيدنا نوح عليه السلام وفلكه. ثم رأى أسراب الطيور وقطعان الحيوان. من كل نوع اثنان، ذكر وأنثى. إنها الأرض الأولى التى ارتفعت من قلب الماء بعد أن انحسر الطوفان عنها، ولكن سفينة سيدنا نوح لم ترس على هذا البر.

عدت إلى من كانوا حولى. كانت المرة الأولى التى أراهم فيها منذ ركوبى القطار. كنا ستة نجلس فى نفس المكان، ثلاثة فى مواجهة ثلاثة، ويبدو أنهم كانوا ينظرون إلىَّ طوال فترة تحديقى فى الخارج. دون أن ألاحظ ذلك. رجل يلبس جلبابا وعلى رأسه عمامه ومعه أفندى. ورجل معه زوجته وابنه وأنا.

شعرت بحالة من الحرج، كدت أن أعتذر لهم. احترت بأى الكلمات أبدأ الحديث معهم. مددت يدى أبحث عن جريدة. وكانت أذنى مع الجالسين حولى. كان الأفندى يسأل الرجل صاحب الجلباب عن أثر دخول الكهرباء الصعيد. وبدلا من أن يحدثه عن هذا الأثر، تساءل الأفندى عن قيمة أن تجتمع الكهرباء والفقر معًا.

نزل السؤال على أذنى فشدنى إليهما، حاولت أن أبدو غير مهتم بالموضوع حتى يتكلما براحتهما. ظل السؤال معلقًا دون إجابة. شعرت به يزحم هواء المكان الذى نجلس فيه. كدت أن أخرج عن صمتى وأكرر السؤال عليهما، ولكنى خجلت من ذلك.

كان الرجل الآخر يشرح لزوجته أننا نسير الآن مع الريح وعكس مياه النهر الصاعدة إلى أعلى نحو الشمال. قال لزوجته إن المراكب الصاعدة تمشى مع التيار. أما النازلة فيدفعها الهواء القادم من الشمال. علق الرجل صاحب الجلباب إن ذلك يحدث لو كان هناك هواء أصلاً. ولكن الزوج لم يرحب بملحوظته ولم يرد عليه. وبان على وجهه غضب مفاجئ، واستأنف الحديث مع زوجته وابنه حول موضوعات أخرى تخص العائلة. تلاقت نظراتى مع الرجل صاحب الجلباب. سألنى بود:

ـ اللفندى من بحرى؟

قالها وأشار ناحية الشمال. هززت رأسى دليل الموافقة. نطقت بكلمة واحدة، قلتها بصوت منخفض فى البداية، فوضع يده حول أذنه اليمنى حتى يسمعنى، فقلتها بصوت عال.

ـ غريب.

تأثر الرجل، وقال إننا جميعا غرباء فى هذا العالم الوسيع. ولكن الأفندى الذى كان معه صحح الجملة، قال إننا عابرون فى هذا العالم الثابت والذى لا يتحرك سوى بالدوران حول نفسه.

كانت حركة القطار الرتيبة تتداخل مع الكلمات. قلت له لكى أصل خيط الكلمات قبل أن تنقطع:

ـ ومسافر إلى الصعيد؟

ضحك الرجل واهتز جسمه. وعندما تداخلت الكلمات مع أول ضحكته. نثر رذاذاً من فمه علينا جميعا:

ـ أمامنا وقت طويل. قبل أن ندخل إلى قلب الصعيد الجوانى.

شرح الرجل نظريته عن الصعيد. قال إن بنى سويف من بحرى، وإن تمحكها فى الصعيد لا يجدى، وأن مقدمات الصعيد وبداياته تهل من المنيا، وأن هناك الصعيد والصعيد الجوانى. كنت أعرف جيداً عواصم المحافظات، وكنت قد سافرت من قبل إلى الصعيد، وكان يمكننى الحديث معه عن الأقصر وعن أسوان. ولكنه قال لى إن ذلك شغل سواح. وإن الصعيد شىء آخر غير الأثرات التى يأتى السواح

لكى يرونها ويلتقطون الصور بجانبها. ويعودون بها إلى بلادهم كدليل على أنهم أتوا إلى هنا وشاهدوا الصعيد المصرى.

لف الحديث بنا ودار. ويبدو أنه كان يلح على ذهنه سؤال عن سبب سفرى للصعيد.

- جئت أحقق جريمة.

قال على الفور مستعرضًا معلوماته:

- إذن ستذهب إلى مكان من ثلاثة: البدارى، أو صدفا أو أبنوب.

تحرك بداخلى حب استطلاع، كدت أن أستخرج أوراقى وأقلامى وأدون ما قاله. ولكنى فضلت الاستماع إليه دون كتابة. حاولت أن أثبت فى ذهنى ما سيقوله من كلمات، خاصة أن المدينة التى أسافر إليها إحدى المدن الثلاث التى ذكرها، بمجرد أن استمع إلى كلمة جريمة. سألته، لم حدد هذه المدن الثلاث؟ وهل للجريمة فى الصعيد جغرافيا محددة ومعروفة؟

قال لى إن هذه المدن تمثل مثلث الرعب الصعيدى. قلت لنفسى إن الرجل يقدم لى عناوين ما سأكتبه. أسبوع فى مثلث الرعب. سألته عن حكاية مثلث الرعب هذه. فأكد لى إنه فى المثلث الذى تمثله هذه المدن الثلاث توجد أعلى نسبة قتل فى العالم، بعد شيكاغو، وأن الإحصائيات العالمية تؤكد هذا.

اكتشفت أننا جميعا قد أصابتنا حالة من الاهتمام بما يقوله، وإن كنت عندما سألته عن مصدر هذه الإحصائية، قال لى إنه سمعها من صديق له. يعمل فى الأمن، وفى مرة أخرى أكد لى أنه قرأها فى

إحدى الجرائد. فقال الأفندى الذى كان يجلس بجواره: ومن يصدق كلام الجرائد؟! خاصة فى هذه الأيام؟! أكد الأفندى أن أصدق ما فى الجرائد هو صفحة الوفيات فقط، وكل ما عداها كذب.

مال عليه صاحب الجلباب وقال له بشكل خاص. يبدو أن هناك أزمة فى المحققين أو أن موسم الجرائم قد هل، ولذلك ينتدبون محققين من بحرى. وذلك خطأ. ذلك أن قبلى قبلى، وبحرى بحرى.

لم أشأ سؤاله عن الجريمة التى حضرت من أجلها. قلت لنفسى لو أنه كان يعرف لتحدث على الفور. ولم أحب أن أكشف أوراقى كلها فى لحظات الكلام الأولى. أتى الصمت بعد الحديث وشعرت برغبة فى التبول فاستأذنت وقمت. دلنى الرجل على مكان دورة المياه. تحركت فى القطار الذى كان يهتز ويتمايل أثناء سيره. اكتشفت أن السياح الأجانب والغرباء هم الأغلبية فى هذا الجزء من القطار، وأن الصعايدة أقلية، والفقراء لا وجود لهم، ولم أشاهد ما كنت أجده من قبل فى قطارات الصعيد من زحام يضرب به الأمثال.

بعد عودتى سألت الرجل عن هذه الظاهرة. فقال لى إن ما نركبه ليس قطار الصعيد ولكنه قطار السياح والأغنياء. إنه درجة أولى وثانية فقط، وكلتاهما مكيفة، وأن أى قطار يخلو من الدرجة الثالثة العادية لا يمكن أن يسمى قطار الصعيد، كذلك فإن هذا القطار لا يتوقف سوى فى عواصم المحافظات فقط من القاهرة وحتى أسيوط، وفيما بعد أسيوط يتوقف فى المراكز علاوة على المحافظات.

قال لى إن من يريد أن يشم رائحة الصعيد، عليه بركوب قطارات

الفقراء، أما هذا الذى نركبه فهو يخترق الصعيد نازلا من الشمال إلى الجنوب، وصاعدا من الجنوب إلى الشمال، دون أن يعطيك فرصة لكى تلمس بحواسك الخمس الواقع الذى يجرى خلاله.

قال موجها كلامه إلى الأفندى الذى كان معه: إن الفارق بين قطارات الأغنياء والفقراء، هو نفسه الفارق بين الحلزونة والسيارة الخاصة فى قلب الصعيد الجوانى.

جلست فى مقعدى، أنزلت مسند الكرسى إلى الخلف، وبدأت أغفو قليلا مع هدهدة حركة القطارات المنتظمة.

كان الرجل يقول عن القطار الذى نستقله المفتخر، أو المستعجلة. أما قطارات الدرجة الثالثة فقد وصفها بقوله إنها القطار القشاش. تضاحك وهو يؤكد أن من يقف ويشير إلى سائق القطار القشاش فإنه يتوقف له. أما المستعجلة فلو مرت أثناء وقوفك على المحطة، فإن خلخلة الهواء - الناتجة عن السرعة - كفيلة بأن تشفطك، تجعلك جزءا من القطار الذى يرمح بسرعة الصوت. والقتل هو المصير الوحيد لمن يحدث له هذا.

٣ـ الأسايطة

قلبى عشق بنت ناسها كتير فى إسنا
الخال من أسيوط لكن العم من إسنا
والخال على الخد يشغلنا ويهوسنا
يارب صبر قليب الغرام.. أضناه
وقوى همه رجالنا ودخلنا إسنا

. . يقولون عن أسيوط عاصمة الصعيد. ولكن المطعم الذى تناولت فيه بعض السندوتشات السريعة، كان ينتمى إلى زمن بعيد مضى. كنت قد خرجت من محطة السكة الحديد لحظة وصولى إلى أسيوط إلى الميدان المواجه لباب المحطة، والذى تطل عليه المحطة فى كل بنادر مصر تقريبا.

كانت جدران الميدان تغطيها صور، ليست صور المرشحين فى آخر انتخابات، كما تعودنا أن نرى، لأن هذه الصور تكون معها رموزها الانتخابية، كانت صوراً مكبرة لأشخاص ملتحين. صور البطاقة مكبرة لرجال فى صدر الشباب، والقليلين منهم فى منتصف العمر. وتحت كل صورة كلمة واحدة حمراء اللون وبخط غليظ: مطلوب، وتحتها سطران متساويان ببنط أصغر: من يبلغ عنه يحصل على مبلغ مالى كبير. ومن يتستر عليه يعرض نفسه للعقوبة التى قد تصل إلى السجن.

تتوقف الناس من أجل النظر إلى هذه الصور. وذلك بهدف وحيد هو تجنب أصحابها إن وجد الإنسان نفسه وجهًا لوجه مع صاحب الصورة. فوق كل صورة مكتوب على ذلك الورق الرخيص: إرهابى، أبلغ الشرطة عنه فوراً. وأرقام تليفونات كثيرة.

عندما تمكنت من العثور على مكان محشور وسط زحام شديد فى

سيارة تاكسى ريفية صغيرة، تنتمى إلى الأربعينات متجهة إلى البدارى. استراحت نفسى، كان النهار قد بدأ يدير لى ظهره. والشمس تحولت إلى الناحية الغربية، وأخذت تنحدر نحو الجانب الآخر من الأرض. والطريق المرصوف كان يعيش لحظات العصارى، كانت ظلال الأشجار قد طالت، والشمس خفتت والهدوء يمتص حتى الأصوات نفسها.

فى الموقف مضى وقت قبل أن تتحرك السيارة التى كانت مفاصلها تئن وتتوجع من الزحام الشديد فيها. وبعد جلوسى أدرك الركاب جميعا أننى غريب من طريقة حديثى ومن أسئلتى. قرأت ذلك فى حصار نظراتهم لى، وإن كنت قد لزمت الصمت.

عندما حاول السائق أن يجد مكانا يجلس فيه حتى يقود السيارة، كان ذلك صعبا. دفع الجالس مكانه لأن يجلس فوق مسند الكرسى، وعندما اصطدمت رأسه بسقف السيارة، قال للسائق:

- منك لمن أكلت ذراع زوجها.

كانت الأحرف والكلمات وطريقة النطق تحمل لهجة ورائحة الصعيد. رد عليه آخر:

- هذا مثل قديم جدا.

أكمل آخر.

- الآن تقول منك لمن طخت زوجها.

وقال ثالث:

ـ وطخت عشيقها بعده.

شرح رابع، كان يجلس على الكنبة الخلفية للسيارة، إن الحكمة من وراء ذلك حتى يتقابل الزوج والعشيق فى الآخرة، ويصفيا حسابهما هناك بعيداً عن الدنيا التى يوجد فيها البوليس والنيابة والمحاكم والسجون.

لزمت الصمت. لم أنطق، ابتلعت أسئلتى. لقد وجدت نفسى ,جها لوجه مع الموضوع الذى جئت من أجله. قررت الاحتماء الصمت حتى لا تفضح كلماتى مهمتى. الأفضل هو ترك الأمور تسير وحدها بحرية، بعيدا عن أى تدخل منى.

اكتشفت أن من فى السيارة يشكلون مجتمعًا رجاليًا، ربما كانت صدفة، ففى الشوارع وفى كل مكان ذهبت إليه قبل الوصول إلى هذه السيارة كنت أشاهد الفتيات والنساء.

تكلموا كثيرا، وإن كان كل ما قيل لم يخرج عن الخبر الأول الذى حضرت به من مصر. زوجة شابة قتلت زوجها وعشيقها فى لحظة واحدة. وسلمت نفسها للبوليس بعد ذلك. قال السائق إن الزوج المقتول لم يكن زوجًا حقيقيًا، وإن العشيق القتيل لم يكن هو العشيق الحقيقى؟ فمن هو إذن عشيقها الفعلى؟! من الذى ساعدها؟ هل تستطيع امرأة أن تقتل رجلين وفى وقت واحد؟ ودون مساعدة من أحد؟ ولا حتى الرجل يستطيع أن يفعل هذا، لا بد من مساعد. فتش عن الذين ساعدوها، عندهم مفتاح السر فى هذه الجريمة.

رد عليه واحد، قال إن البنت عفية وعملتها بمفردها. أكمل، إن

الرجل الذى يمكن أن تعشقه مثل هذه المرأة لم يوجد بعد فى هذا العالم.

تحسر راكب فى المقعد الخلفى:

ـ إنها امرأة، أنثى.

سالت من أعين الرجال نظرات الرغبة والاشتهاء. وطافت فى جو السيارة المزدحم رائحة أنثى حاضرة بغيابها الصاخب.

أكمل الرجل:

ـ يا حسرتنا على الخفر الذين فى بيوتنا.

رنت فى خاطرى جملة كنت قد قرأتها ووضعت خطا بالأحمر تحتها. كانت الجملة لكاتب فرنسى لا أذكر اسمه تقول: كل نساء العالم جميلات ماعدا زوجاتنا. كدت أن أقول هذه الجملة، ولكنى قلت لنفسى إن بطولتى الآن تكمن فى الصمت وليس فى الكلام. علىَّ مقاومة أى رغبة فى الكلام مهما كانت حارقة.

لاحظت أن الجالس بجوارى كان ذابلا، كان صائمًا عن الكلام، لم يتكلم. مد السائق يده، ودفعه فى جنبه. وقال:

ـ حضرة الصول واكل سد الحنك.

تساءل أحد الركاب عن معنى كلمة واكل.

كان الجالس بجوارى شابا، وكان عليلا، وكانت نظراته ساهمة. وعندما زغده السائق فى جنبه. فزع. بدا الفزع واضحًا على وجهه. وكأن أحدًا قد ضربه. انتبه من غفوته. يبدو أنه كان نائمًا وهو مفتوح

العـينين. وبدلا من أن يرد على السـائق غـمـغم بأجـزاء من أحـرف كلمات لم أفهم معناها.

قال له السائق:

ـ كنا نتكلم عن الحرمة التى قتلت رجلين مرة واحدة.

عاد السائق يسأل حضرة الصول:

ـ هل تستطيع عملها بمفردها. أم أن هناك شركاء؟!

غمغم الصول الشاب. اكتشفت أن كلماته تقول إنه ليس من هنا. خمنت أنه قادم من الوجه البحرى مثلى. قال كلمات مفككة جمعتها وأعدت صياغتها فى ذهنى، اكتشفت أنه قال إن المجرم مهما كان ذكاؤه لا بد وأن يقع فى خطأ ما يجعل الشرطة تصل إليه فى النهاية. ولكن أحد الركاب نهر السائق:

ـ اترك الصول فى حاله. الراجل عليل.

تحولوا فى كلامهم من المرأة العفية التى طخت رجلين إلى الصول العليل. والصول لم يكن صولا. كانوا ينادونه باعتبار ما سيكون وكنوع من التفخيم. كان الجالس بجوارى بين النوم واليقظة، جنديا فى البوليس. كان من بحرى ونقل إلى هنا منذ عامين. وكان فى أسيوط ليس لأنه كان فى إجازة فى بلده، فهذا لا يحدث سوى مرتين فى العام، مرة فى العيد الصغير والثانية فى العيد الكبير.

كان فى أسيوط لأنه كان يعرض على الحكيم النفسانى ـ هكذا قالوا لى ـ ومرضه كان أغرب من الخيال نفسه. ولأنه لا توجد أسرار هنا؛ قال السائق:

ـ عليل من أكل السمك .

وسمعت التفاصيل التى نقلتنى لأول مرة إلى هذا الواقع . والعسكرى بدير ، أو الصول بدير كما ينادونه هنا ، قادم من سواحل الشمال البعيدة ، أما لماذا نقلوه إلى هنا ، فتلك حكاية أخرى . فالقليل من الصعايدة من يقبل العمل فى البوليس . ولا بد وأن هناك سببا لنقل بدير إلى هذه البلاد التى على شمال السما . وهذا التعبير كان بدير يستخدمه عندما وصل إلى هذه البلاد .

المهم ، كان طعام بدير الأساسى الذى يحبه هو السمك والأرز المطبوخ بالزيت ، وأى طعام آخر يأتى بعد السمك ، ولكن لسوء حظه ، فى أيام خدمته الأولى فى الصعيد ، حضر تحقيق عددا من الجرائم ، كانت جثث البنات المقتولات تخرج فيها من الماء قبل حضور البوليس بقليل . وكان بدير يلاحظ أن الماء مختلط بالدماء . واكتشف فى مرة أخرى بعض الثقوب فى وجه فتاة قتيلة .

عندما سأل بدير زملاءه عن الثقوب ، قالوا له إن السمك كان قد بدأ يأكلها قبل أن تطفو على سطح الماء . فى اليوم التالى كان يأكل السمك ولكنه تذكر أن هذه السمكة التى يأكلها بالذات ، أكلت لحم الفتاة البكر وشربت دماءها . كان أهل الفتاة قد قتلوها لشكهم فى سلوكها . والسمكة أكلت جزءاً من وجه الفتاة الذى كان صبوحًا وجميلا .

مرض بدير وبدأ يهذى . امتنع عن أكل السمك ، ولكنه لم يتمكن من تغيير عاداته الغذائية . بدأ يشكو ليس من الطعام فقط ، ولكن من غسيل ملابسه . خجل أن يقول إن بعض علامات الأنوثة بدأت تغزو

حياته من كثرة الجلوس أمام الطست حتى ينتهى من فم الغسيل. ويبدأ يشكو من تنظيف مسكنه ومن إعداد طعامه ومن الحياة بمفرده.

فى كل مرة كان يذهب إلى الحكيم كان يعود بدون دواء، وكان الحكيم يكتب على أورنيك العيادة كلمتين فقط: حالة نفسية. نصحه زملاؤه بالذهاب إلى حكيم خصوصى فى أسيوط. ذهب إليه. ودخل فى متاهة العلاج. يذهب ويعود ومعه الأدوية. هذه حبوب مهدئة تهدئ الأعصاب، وتلك أبر تجعله ينام، والجزء الثالث من العلاج أن يفضفض بالكلام فى عيادة الحكيم مرة كل أسبوع.

يجلس فى غرفة مظلمة وأمامه الحكيم. يتكلم فى أى شىء وفى كل شىء. عندما هاجمته العلة، قدم التماسات وطلبات. ووسط أناسا كبارا من أجل أن ينقل إلى بلدته فى سواحل وجه بحرى. فى البداية نظروا إلى طلبه بعين الرأفة ولكن ضابطا كبيرا أشر على الورق إن حوالى ٧٠٪ من رجال البوليس فى الصعيد من بحرى أصلا، وإن الموافقة على نقله ستفتح عليهم بابا من المستحيل إغلاقه بعد ذلك.

عندما كرر الطلب، قالوا له إنه لو حصل على توصية طبية بنقله إلى بلدته كعلاج وحيد له؛ سينقلونه فوراً. ولكن الحكيم الذى كان يعالجه استغرب الطلب، ورفض أن يكتب له التوصية المطلوبة. قال له إنها المرة التى يطلب منه فيها مثل هذا الطلب. لقد تعود على صرف دواء وإعطاء إجازة مرضية، والتوصية بعمل خفيف. أما التوصية بالنقل فذلك ليس من صميم عمله.

أجبر العسكرى بدير نفسه على أكل السمك، واستمر الهزال يأكل جسده من الداخل، وأصبح كثير السرحان، وكاد أن ينسى حكاية

نقله إلى بلدته . وعندما كانت تأتى الأعياد ، أصبح ينسى السفر إلى بلده وأهله . وإن سأله زملاؤه عن السبب فى عدم سفره . قال إن تكاليف السفر أصبحت كبيرة . وعندما يقول له زملاؤه إنه يسافر بالمجان ، فهو رجل بوليس ويركب المواصلات الحكومية مجانا . يعود ويقول إن مشقة السفر صعبة وإن صحته لم تعد تحتمل مشاكل وهدة السفر إلى آخر الدنيا . وعندما يقول له زملاؤه إنه لن يسافر فوق جمل وإنه لن يطلع إلى الشمال ماشيا على قدميه ولكنه سيركب مواصلات . ينظر إليهم فى صمت ولا يرد عليهم . ثم إنه من المفروض أن أهله وأحبابه وأصحابه يوحشونه . يعود فيقول إنه لم يعد له هناك أهل ولا أحباب ولا أصحاب . من كانوا له هناك ماتوا ودفنوا ، فهو لا تصله خطابات منهم . وهو لم يعد يتذكر حتى مكان بلدته .

عرضوا عليه فكرة الزواج ؛ فرفض ، وأصيب بحالة من الانزعاج . وبدأ الناس يقولون إنه مخاوى جنية . وقال آخرون إن روح البنت البنوت التى كان السمك قد أكل جزءا من وجهها ، الذى كان صبوحا ومنيرا وجميلا ، والذى لم يشاهد مثل جمالها فى حياته كلها . قالوا إن روح البنت حضرت له فى البيت وبعد ذلك جاء جسدها . وهى تخاويه فى البيت . تأتى فى الليل وترحل مع نسمات الفجر الأولى . إن هذا هو السر فى أنه طلب إعفاءه من النوبتجات الليلية . وقد أجيب إلى طلبه مع استحالة حدوث هذا مع جندى فى الشرطة .

أكد جيرانه ، أن بدير يستحم بعد انصراف الجنية من بيته مباشرة ، وأن جيرانه يسمعون صوت الماء الذى يرشه على جسمه فى الطست

النحاسى، وأنه يرش مياه الحموم أمام بيته، وفوق وجهها فقاعات الصابون. بدأت جدران حمامه ترشح من مياه الحموم، وأن الجنية ذات الوجه الصبوح أو الوجه الذى كان صبوحًا كانت تستحم فى مياه النيل القريبة، تنزل فى النهر تستحم أكثر من مرة. تغسل نفسها ولا تخرج من المياه إلا مع بكة الشمس الأولى.

لاحظ زملاؤه أن حالة بدير أصبحت عادية. وإن كانت العلة تهاجمه بشدة فى الأوقات التى يحضر فيها التحقيق فى أى جريمة قتل، يستخرجون القتيلة فيها من الترعة أو الرياح أو النيل، أو يجدونها معبأة فى جوال مرمى وسط الزراعات. بدءوا يستبعدونه من تحقيق مثل هذه الجرائم. ولكنه كانت تعاوده الحالة بمجرد أن يستمع من زملائه إلى أى حديث عن تحقيق هذه الجرائم.

ولأنه كان من الصعب محاصرة أو منع الحديث عن هذه الجرائم أمامه، كانت تعاوده الحالة من جديد، وكان يذهب فوراً إلى الحكيم، الذى يجلسه فى غرفة مظلمة، ويطلب منه الكلام، ينتقل من موضوع إلى آخر بحريته التامة، ويعود آخر النهار ومعه الحبوب المهدئة، والإبر التى تجلب النوم.

تقول الناس فى البندر إن بدير يذهب إلى هذا الحكيم عندما تخاصمه الجنية. فيستحضر له روحها ويصالحها عليه. ويعود إلى البيت لكى يقابلها فى الليل. فالرجل طبيب نفسى وحكيم روحانى فى نفس الوقت.

كنت أستمع إلى ما يقولونه. وكانوا يتناوبون تقديم فصول الحكاية وكانوا يبدون وكأنهم فعلوا هذا من قبل أكثر من مرة. كانت أذنى

معهم. ولكن عينى كانت على بدير الذى كان يبدو وكأن الكلام عن شخص آخر غيره.

لا أدرى إن كانت الكلمات تصله، أم أنه لم يكن يستمع لها. خيل إلى أن دفء الحياه. قد بدأ ينسحب من جسمه، الذى كان ينتفض فى بعض الأحيان، مثل فرفرة الفرخة بعد الذبح. قال بدير كلمات متناثرة، يصل التناثر أحيانًا إلى أحرف الكلمات، حاولت تجميع ما قاله، واتضح لى بعد أن انتهى من جهد النطق بالكلمات، وانتهيت أنا من إعاده صياغتها فى جمل، أن ما قاله كان أقرب إلى أبيات من الشعر الشعبى:

ـ رحت للطبيب.

لقيت الحكيم عيان.

يا من يداوى العليل.

سألت عن البيت الذى يعيش فيه. فقالوا لى إنه أجر بيتًا من بابه. يعيش فيه بمفرده. وأنه رفض أن يشاركه أى زميل له فى هذا السكن، خاصة وأن الكثيرين طلبوا منه ذلك. وأنه من المفروض أن يعيش مع زملائه فى المعسكر، بعد مرضه سمحوا له بالحياة فى بيت يخصه، عليل لا يسند له عمل، وبعفى من الورديات.

على مشارف البدارى سألت عن مكان أبيت فيه، فعزموا على جميعا. أن أقضى الليل عندهم. شكرتهم، قلت إننى أسأل عن فندق أو لوكاندة. فقالوا لى إنه كان من الأفضل قضاء الليل فى لوكاندة فى أسيوط.

هنا فقط سألونى عن سبب حضورى وإلى من أذهب فى البدارى. وقبل أن أجيبهم، سألتهم عن آخر مواعيد المواصلات. فقالوا لى إن التاكسيات تعمل حتى منتصف الليل، وأنها قد تمتد إلى الفجر، حسب حالة الركاب وحركتهم.

سألت عن الأماكن العامة التى يمكننى الذهاب إليها، لاحظت أنهم بدءوا يعاملوننى باحترام مبالغ فيه. سألنى السائق إن كنت قد تضايقت من شىء خلال الرحلة. وبدأ الركاب يتهامسون مع بعضهم. كنت متأكدا أن هذا الهمس يدور حولى. ولم أشأ أن أقول لهم أى شىء عن نفسى. قالوا لى إن البلد فيه عدة مقاهى وناد واحد هو نادى الموظفين، وإنه أفضل مكان بالنسبة لى وأكثرها أمانا.

كان الوقت هو الغروب. وكان قرص الشمس يبدو أحمر قانيا على البعد. وقد غطس نصفه وراء الجبل الغربى. هنا يستطيل وقت الغروب ويمتد ويتمدد. أما فى المدينة - التى أعيش فيها - فإن النهار يختفى مرة واحدة، والليل ينزل بظلامه فى لمح البصر.

كان الغروب. وكانت الشوارع رصاصية اللون. وكان ظلام الليل يصعد من الأماكن الغويطة من الأرض ولا ينزل من السماء. ويعشش فى الزوايا والأركان، اكتشفت أن ضوء الكهرباء أصفر وباهت، وأنه عندما يعلن عن وجوده يكشف عن كمية كبيرة من الهوام والحشرات التى تطير فى الجو. تدخل دائرة الضوء فتبدو كثيرة. تزحم حتى الهواء وتجعل شكل الضوء باهتا.

قررت أن أتمشى قليلا فى البندر. فكرت فى العوده إلى أسيوط، وإن كنت أفضل المبيت هنا بأى صورة من الصور. قررت الذهاب إلى

أحـد المقـاهى، ثم أتوجـه إلى نادى الموظفين. فكرت فى كل هذه الأمور دفعة واحدة. واكتشفت أن رسم الخطط قد يفسد علىَّ تلقائية رحلتى.

قلت لنفسى إنه من الأفضل التحرك بصورة عفوية. تركت نفسى أتمشى فى شوارع البندر. كان آخر من شاهدته بعد النزول من السيارة هو العسكرى - أقصد الصول - بدير. كان هو الوحيد الذى لو عزم على بالمبيت عنده لذهبت معه. ثمة شىء فيه يشدنى إليه. الذين عزموا على من الركاب كانت عزوماتهم أقرب إلى عزومة المراكبية.

كدت أن أتكلم مع بدير. ولكنه كان يعانى من مقدمات غيبوبة. مشى. نظرت إليه حتى اختفى عن ناظرى، رأسه يتدلى نحو الأرض. يداه متهدلتان تتحركان بصورة منفصلة عنه. لا وجود لسيطرته على جسمه، كان يرفع قدميه بصعوبة عن الأرض، وقبل أن يكمل رفعها، تنزل بصورة آليه، ربما غصبًا عنه.

خيل إلى أنه كان فى يده شىء عندما كنا فى السيارة، وهذا الشىء ليس معه وهو يزحف بصعوبة. أوشكت أن أنادى عليه، ولكنه بدا لى إنسانا يمشى فى الطريق إلى قبره، فسكت.

٤ ـ البـــــداري

والغـالب على إقليم الصـعـيـد، العلم
والفـهم والدين والسـيـاسـة، وحب
العـمارة، وجمع المال والسماح والبهاء
والرزينة.

أبو إسحاق البيهقي

. . عندنا فى بحرى، عندما يدعون على رجل، يقولون له: منك لمن أكلت ذراع زوجها. ويبدو أنهم لا توجد عندهم فكرة عما يجرى هنا فى قلبى. فالمرأة التى حضرت من أجل تحقيق جريمتها قتلت زوجها وعشيقها فى ليلة واحدة.

تصورت أنها امرأة مسترجلة. جسمها غابة من العضلات وهيكل عظامها ضخم وقوى. يذكر الإنسان بهيكل الإنسان الأول. ولكن جرسون المقهى الذى جلست عليه لأستريح واستلقط الأخبار، سمعته يحدث أحد الزبائن عن جمالها الفتان. كان الزبون قد سأله:

ـ لا بد وأنها فتواية؟!

فأكد له الجرسون أنها رقيقة الجسم. تبدو من بعيد مثل صبية من تلميذات مدارس هذه الأيام. سمعت أنها من بنات البنادر البعيدة. من بنات بحرى. رقيقة وجميلة وليست مثل نساء الصعيد. سمعت أيضًا أنها صغيرة فى السن. وأن زوجها كان شابًا يكبرها بسنوات قليلة. ولكن العشيق، القتيل الآخر، هو الذى كان فى سن والدها، وسن والد الزوج القتيل أيضًا.

أما كيف قتلت رجلين فى وقت واحد، وهى بهذه الصفات؟ فقد قالوا لى إنها غدًا فى الصباح ستمثل أمام النيابة الطريقة التى قتلت بها الرجلين على الطبيعة. وإن كان من المتوقع أن يقام كردون من رجال

الشرطة يمنع الآخرين من الاقتراب من المكان الذى ستمثل فيه كيف وقع الحادث.

وقت الغروب. الرجال بحر من البياض الجميل فى الشوارع، اللاسة البيضاء الملفوفة على الرأس، والجلباب ذو الأكمام الواسعة جدًا، والفتحة النازلة حتى السرة والقطان اللميع. وفى القدمين البلغة صيفا، والجزمة اللميع أم أستك فى الشتاء. جلاليب الصعايدة الواسعة، سواء أكانت جلاليب الرجال أم ملابس النساء. وبقدر اتساعها يقابلها ضيق الدنيا. وبقدر رحابتها نجد ضيق ذات اليد.

كان الليل يدخل على البلد. وكنت قد أجلت موضوعى حتى صباح الغد. ولكنى كنت مشغولا بأمرين. الأول: الرغبة فى العودة إلى أسيوط من أجل المبيت. والثانى: أننى كنت أريد الذهاب إلى نادى الموظفين فى البندر من أجل الكلام معهم؛ فهم يشكلون صفوة الناس هنا.

أما مقابلة المأمور ووكيل النيابة الذى يحقق الحادث والضباط الذين باشروا الواقعة، والذهاب إلى البيت الذى يشكل مسرح الجريمة، فقد أجلت كل ذلك إلى صباح الغد.

ما أدهشنى أثناء جلوسى على المقهى. هو الطريقة التى يتعاملون بها مع القتل هنا. لو أن هذا الحادث وقع عندنا فى بحرى لتوقفت الحياة منذ وقوع الجريمة، ولظلت متوقفة فترة من الوقت. إن مجرد العراك بين الجيران، أو الخناق حول الرى يوقف الحياة طويلا. فما بالك بالقتل. قتيلان فى ليلة واحدة؟!

كان الناس يتحدثون عن الموضوع كله، عن القتيلين والقاتلة، كأن الموضوع جزء من حكاية كل يوم. وعندما استبشعت الحادث قال لى واحد من الجالسين، إنه سيحكى لى حكاية. حكى لى محدثى. سئل الأسد يوما ما الذى يخيفك. وقبل الإجابة أكمل سائله: الفيل؟ النمر؟ قال الأسد: لا. استعرضوا كل حيوانات الغابة. فقال: لا. وعندما قالوا له حدد أنت الذى يخيفك. قال: النملة.

انتقل المتحدث من حكاية الأسد والنملة التى تخيفه إلى الحادث الذى جرى. قال إن القاتل حرمة، ولذلك لن يكون هناك ثأر منها. لا يمكن لرجل أن يقتل حرمة طلبا للثأر. قد يقتلها لغسل عاره، أو تصحيح خطأ وقعت فيه. أما القتل من أجل الثأر فمن المستحيل أن يحدث.

ثانى هام - قال محدثى - إن الزوج ليست له عزوة فى الناحية، العائلة ليست هنا، وليس لها عرق من تراب البلد، معظمهم هاجروا إلى الشمال حيث استقروا فى مصر أم الدنيا، وليس من تقاليدهم، ولا تجرى فى دمائهم الرغبة فى الثأر، تلك أمور لا يعرفون عنها شيئًا.

- والعشيق؟!

قالوا لى إنه من أكبر البطون فى الناحية كلها. رجل ولا كل الرجال. ولكن لكل رجل سقطته. كان قويا. ولم يكن من الممكن أن يقتله أحد، ولا الموت نفسه كان يجرؤ على الاقتراب منه. ولكن الحرمة كانت الوحيدة التى قتلته؛ لأنه من المستحيل أن يتصور حدوث هذا. ما كان هناك رجل فى العالم كله يمكن أن يكسره.

قال الجميع إنه لا يوجد فى أسرته من يبدو متحمسا لأخذ ثأره، ولأن القاتل حرمة، ولأن حريمه وأولاده وأحفاده فوجئوا بالحكاية كلها من طقطق لسلامو عليكو. وبسبب رائحة الحكاية، لا يوجد من هو مستعد للأخذ بثأره. سمعتهم يتفقون على أن هذا الحادث هو الوحيد الذى لن تكون وراءه ذيول ثأر أو خلافه.

قررت البقاء أطول وقت ممكن هذه الليلة. شاب متعلم كان يجلس على المقهى أكد لى أن المواصلات تبقى حتى الفجر؛ فنحن فى أيام الانفتاح. استيقظت حواس المدنية البعيدة فى داخلى، وسألته عن العلاقة ما بين الانفتاح والتاكسى الذى يعمل حتى الفجر.

- القروشات بتاكل الناس. مثل البراغيت والنمل. تقوم تجرى تصرفها وترجع من تانى.

فاجأنى بشرح آخر:

- الولد تهج، وتطير بلاد الله خلق الله، تجيب القروشات، وتعاود تهج فى انصاص الليالى علشان تصرف القروشات.

صمت قليلا. وقال:

- تعب.

قمت من المقهى. سرت فى البلد. الذى يسمونه البندر. اكتشفت أننى فى مكان يرقص على السلم. لا هو مدينة ولا هو قرية، يقف فى منتصف المسافة بين القرية والمدينة. لا أحد يعرف أين تنتهى القرية ولا أين تبدأ المدينة. فى بعض الشوارع كنت أجد كثيرا من العلامات

التى تذكرنى بقريتى البعيدة. وفى بعض الأماكن الأخرى كنت أتذكر شوارع الأحياء الشعبية الفقيرة فى المدينة التى أعيش فيها.

توقفت أمام نادى الموظفين، ناد ريفى، مضاء بالكهرباء ولكن اللمبات تبدو مثل الوناسة أو السهراية، تهمس بضوء شاحب كليل عاجز عن مطاردة الظلام. مكان مغطى بالأتربة، حيطانه مطلية بالزيت فى وقت قريب، وكونت الأتربة والغبار طبقة فوق الزيت. بلاط الأرضية كبير ومضلع وقد تحرك من مكانه.

الطرقة المؤدية من الباب إلى الصالة مغطاة بتكعيبة عنب، والأشجار حولها من كل جانب. شممت رائحة الخضرة والأرض المروية. ونظرت إلى الحديقة التى تحيط بالنادى، فشاهدت خرطوما ضخمًا تنزل منه المياه لرى الأرض، فاشتقت للحقول والبراح والمناطق المكشوفة، والنظر إلى سماء واسعة تنسدل على الأرض كالستارة التى لا نهاية لها.

كان الوقت مبكرا، ولم يكن أحد قد جاء إلى هنا. هكذا بدا لى الموقف. هب إلىَّ العامل الموجود فى النادى. ولكنه ما إن شاهدنى حتى وقف على البعد، وقد تعكرت الابتسامة التى كانت على وجهه وجفت علامات الترحيب. أشار إلى يدى وإلى الحقيبة الصغيرة التى أمسك بها وقال:

- أول موظف يحضر ولا يحمل جبلا من الحقائب والسلاليات والأسبتة والقفف والغلقان.

فهمت؛ فضحكت. وضحك هو لضحكى. وتحول الموقف إلى

الضحكة الأولى التى تسللت إلى كآبتى . إنها الضحكة الأولى - وربما الأخيرة - التى عكرت وجهه المليء بالأتربة والتجاعيد . تصور أننى موظف منقول . ثم فوجئ أننى لا أحمل حقائب كثيرة .

قلت له باختصار :

- ضيف .

وضع يده حول أذنه اليمنى ؛ لكى يستمع . أعدت قولى :

- ضيف وغريب .

رحب بى . طنين ذباب ، وصوت نحل ، وأزيز ناموس يلف حول اللمبات التى كانت مغطاة بطبقة من مخلفات الحشرات التى تطن حولها طول الليل . سألت عن الموظفين . قال لى إنه يوجد واحد فقط .

- الأستاذ مجلى .

أشار لقاعة فى الداخل . قال لى هامسا قبل أن أدخلها :

- أول واحد يحضر ساعة المغربية . وآخر واحد يمشى بعد نصف الليل .

قبل أن أخطو إلى داخل القاعة . . أشار إلى رأسه وقال لى :

- خلى بالك منه . عقله خفيف . عنده لطف يا لطيف .

كان الأستاذ مجلى يجلس فى ركن القاعة الداخلى ، يعطى ظهره للقاعة . وينظر لنافذة أغلق زجاجها . كان ينظر إلى الخارج . كان

وجهه قريبًا من زجاج النافذة لدرجة أن زجاج نظارته كان يلامس زجاج النافذة.

ما إن دخلت القاعة وسمع صوت أقدامى حتى فزع وقام من فوق كرسيه مرة واحدة، وكما لو كنت قد دخلت القاعة مهاجما. بدا لى أنه يستعد للدفاع عن نفسه ضد خطر يهدده. ابتسمت له فاقترب منى وصافحنى، هز يدى بعنف غير مبرر ومبالغ فيه، قلت لنفسى إن هذا العنف إما إنه يعكس ارتجافه الداخلى، أو ربما كان يحاول أن يثبت لنفسه، قبل أن يؤكد لى أنه قوى، قبل أن يرحب بى. قال له عامل النادى إننى ضيف. غريب وضيف. أشاح بوجهه عنى إلى الناحية الأخرى. قال لنفسه ألا يكفيهم رجال المباحث المحليون حتى يستوردوا مباحث من بلاد أخرى؟

قدمت له نفسى. أطلعته على أوراقى، فاطمأنت نفسه قليلا. سألنى عن زميل كان قد ذهب إليهم منذ عام لكى يجرى تحقيقا عن أزمة اللحوم. عاش بينهم أسبوعا وعاد فكتب عكس ما سمعه على طول الخط. لوى عنق الحقائق والوقائع والكلمات. وكتب موضوعا لا يعرفون من أين أتى به. قلنا لأنفسنا ربما زار بلدا أخرى، ولكن اسم بلدنا وأسماءنا وصورنا كانت تملأ التحقيق.

تعجبوا من حال الزمان. توقف الأستاذ مجلى قليلا ثم استأنف كلامه مؤكدًا أنه لا يلوم زميلنا. فالآله التى تعصر الجميع بداخلها رهيبة وقاسية. صمت قليلا وقال:

- الآلة الجهنمية تأكل الجميع.

أنارت وجهه المتجهم ضحكة عصبية . ثم قال :

- لا أستثنى أحداً . هذا رأيى .

جلس وجلست . جاءت جلستنا معًا بالقرب من النافذة . فى آخر القاعة من الداخل . كان الشارع معتما . وفى ظلام الشارع كان يبدو مصباح فى آخر الشارع على البعد . وكان ضوءه متعبا . يذكرك بالقناديل الليلية التى تبدو مجهدة ومتعبة وقت الفجر ومتراجعة أمام ضوء النهار القادم .

كان المصباح الكهربائى مثبتًا وسط فانوس قديم . والفانوس معلق على عامود ضخم . والعامود يتوسط ميدان صغير . وكانت الناس تتحرك فى دائرة الضوء الصغيرة ، تدخل إليها فنراها ، وتخرج منها فتذوب فى الظلام .

كنا نشاهد السجائر فى أيدى الرجال ترسم الحركة العادية لسير الإنسان . وعندما كان الإنسان يقترب بالسيجارة من فمه ، وعندما كان يأخذ نفسا منها ، كانت ملامح وجهه تبدو مشتعلة بالوهج الأحمر المنبعث من السيجارة فى لحظة اشتعالها .

طلب لى شايا . فوافقت رغم عدم رغبتى . وعاد ينظر إلى الشارع . وفجأة نظر ناحيتى . وقبل أن يرحب بى سألنى :

- جئت من أجل الجريمة البشعة؟

لحظة نطقة بكلمه البشعة دارى وجهه بيده وكأنه يرى الجريمة أمامه . وتصورت أنه ربما شاهد الجريمة بنفسه لحظة وقوعها ، وأنه مازال يقف فى نفس اللحظة ، وأن الزمن لم يتقدم بعدها برهة

واحدة، وأن مشهد الجريمة قد ترك فى أعماقه مساحات من الرعب وحالة من الخوف.

قال لى:

ـ اسمع، لا حل إلا بأن تتواجد الدولة.

كانت الكلمات تندفع من فمه. وكأن رشاشا من الرزاز الخفيف يتناثر مع الكلمات، وكان الرشاش يصلنى، ولكنى تحملت، ولم أحاول حتى مسح التفتفة من على وجهى؛ لأننى تصورت أن مسح هذا الرشاش سيلفت نظره، وأن ذلك كفيل بأن يخجله، ويسلمه إلى حالة الصمت، من جديد.

قلت:

ـ تتواجد الدولة أكثر من تواجدها الراهن؟!

قال:

ـ لا مفر من يد الحكومة الباطشة تقف بين الظالم والمظلوم.

كان ينطق لغة عربية سليمة ومشكولة. وقد حسدته على هذه القدرة رغم ثورته.

سألنى بعد فترة:

ـ لم نجد الآلة الجهنمية عندما لا نريدها، وتهرب منا عندما يكون وجودها مهما للجميع؟!

أشار إلى أوراقى وقلمى. وصلت أصابعه الطويلة إلى القلم:

ـ اكتب على لسانى . أنا المسئول . قل إننى أطلب وجود قوانين استثنائية وأوضاع استثنائية .

قلت له :

ـ الجميع ضد كل ما هو استثنائى . الوضع الطبيعى أفضل .

صاح فى وجهى :

ـ القانون الطبيعى مطلوب لمواجهة وضع طبيعى . والقانون الاستثنائى يواجه وضعًا استثنائيًا . وما نعيشه نحن وضعًا استثنائيًا مائة فى المائة .

قال لى إنه يعرف أن ما يقوله كلام خطير . وهو يقوله للمرة الأولى فى حياته . وقد توصل إليه فى لحظة إشراق غريبة . جاءته فجر الليلة الماضية بعد هذه الحادثة البشعة التى ستجر وراءها ما ستجره .

قال إن المشكلة تكمن فيما يقولونه فى مصر . أدركت أنه يقصد القاهرة . قال إن رئيسكم المؤمن منذ أن قال عنصرى الأمة قسمنا إلى عنصرين ، لكنه تناسى أن يحدد ما هو النصف الحلو ومن يبقى العنصر المالح ، ثم عاد يقول الفتنة الطائفية فحولنا إلى طائفتين ، وإن كان قد رفض الاعتراف صراحة بالطائفة المنتصرة ، وشعاره زبيبة الصلاة ، وكان هو أول من رباها . وكل منتصر لا بد له من مهزوم . يقول نسيج الوحدة الوطنية وليس وحدة الوطن . مع أن هذا النسيج عمره أربعة عشر قرنًا . وقد أصبح قديما ومتآكلا ، ليس بسبب العته ، ولكن بفعل مرور الوقت وتقدم الزمان .

طبعًا لم يقل كلامه بهذا الترتيب . كان أقرب إلى الهذيان . وقد

ذهلت من الكلام ومن الشخص الذى يقوله . فكرت فى الرد عليه . كان الأمر يتطلب وقتًا طويلاً . ولم أحب تعقيد مهمتى قبل أن تبدأ . سألته إن كان هذا الكلام هو رأيه الفردى . أم إن هناك آخرين يقولون به . قال لى جملة مرتبة هذه المرة :

ـ هذا هو شعور الجميع ، ولكن من يجرؤ على الكلام؟!

قلت له محاولا الخروج من الشارع المسدود الذى دخلنا إليه :

ـ لا ثأر هذه المرة .

أكدت له أن الناس هم الذين قالوا لى ذلك .

صاح فى وجهى :

ـ ليت الأمر يقف عند الثأر ، هناك ما هو أخطر .

عاد يطلب منى كتابة ما يقوله بشأن الإجراءات الاستثنائية التى يطلبها . حركت يدى من أجل أن أكتب . فعاد يقول لى إنه مسئول عن هذا الكلام ، وإنه يمكنه إعطائى رقم بطاقته العائلية وتاريخ وجهة صدورها وإنه يمكنه أن يوقع لى على كلامه ، إن كنت أخشى المسئولية .

فردت أوراقى وبدأت أكتب له ما يريده . رفضت مسألة البطاقة وكذلك التوقيع على كلامه . قلت له بعد أن انتهيت من الكتابة : إنه متشائم وإنه يضخم من الأمور . ويبدو أن السبب فى هذا هو الإقامة فى بندر صغير علاوة على أنه مثقف . والمثقف يضخم من الأمور العادية . فالناس هنا تنظر إلى حادث القتل على أنه من الأمور اليومية ، ومن النادر أن ينزعج منه أحد بهذه الصورة .

سألنى فجأة، أين أعيش؟ وقبل أن أجيب، عاد يسألنى أين ولدت؟ وأين أهلى؟ حاولت الرد عليه ولكنه واصل أسئلته. سألنى إن كان لى أهل من الصعيد. فقلت له إن جزءاً من عائلتى يعيش فى الصعيد، وإن كانت أسبابنا مقطوعة.

قال لى بعد لحظة تأمل:

ـ أنت معذور.

أكمل:

ـ قليل ما تعرفه عن الصعيد.

بدا كمن يحدث نفسه:

ـ الصعيد لغز. الصعيد معمار قديم من العادات والتقاليد.

هناك طريقتان للتعامل معه: إما الدخول فى المعمار أو محاولة هدمه. والكل يحتويه المعمار الضخم القديم، الصعيد معبد فرعونى قديم.

قلت:

ـ ولكنى سمعت كلمة الانفتاح من أفواه الصعايدة.

عاد إلى هذيانه الموجه إلى:

ـ هرب الرجال. هجرة جماعية. خرجت البنات. أموال البترول جاءت. والمسجلات ملأت الشوارع. والتليفزيونات فى كل بيت. وجوازات السفر فى الأيادى. والدولار ظهر على المقهى وفى الحقل.

بدأ الآخرون فى المجىء. توافدوا على النادى. فلجأ الأستاذ مجلى إلى صمت غريب، صام عن الكلام، لم ينطق بكلمة. بدأ يحدق فى الشارع المظلم من زجاج النافذة، الذى تجمعت حوله وجوه الأطفال والشيوخ والناموس وغبار الليل الناتج عمن يسيرون فى الشوارع.

كل ما فعله الأستاذ مجلى أنه كان يقدمنى لكل من يحضر، كان من الصعب عليه تذكر اسمى. ولكنه لم ينس وظيفتى التى يبدو أنها أهم من شخصى، وإن كان قد آثر عدم الكلام عن المهمة التى جئت إلى هنا بسببها. ربما تصور أننى لست فى حاجة إلى سبب لكى أحضر إلى هذه البلاد.

فهمت مما قاله الذين حضروا أن الأستاذ مجلى مسئول رعاية الشباب فى المركز، وأنه من أبناء البلاد أصلاً، وأنه يعتبر جلوسه هنا نوعا من القيام بمهام عمله، فالشباب يحضر إلى النادى صباحًا ووقت العصر.

كان الذين حضروا جميعا من الموظفين، البعض من أبناء البلد ويعملون فيها، وإن كان الأغلب منهم يعمل فى قرى قريبة من البندر، ويسافر إليها كل يوم ويعود وقت الظهر. والبعض الآخر من الموظفين غرباء عن المدينة، حضروا إليها من أجل الوظيفة فقط، ومنهم من أحضر معه أسرته، ومن يقيم بدون الأسرة.

كانوا جميعا يمثلون الأجهزة الحكومية الموجودة فى البندر. كان فيهم المدرسون، وموظف الشهر العقارى، ومسئول مكتب البريد، وناظر محطة الأتوبيس ورئيس فرع شركة بيع المصنوعات.

كان البعض منهم يلبس بدلا أنيقة، والآخرون جاءوا بالجلاليب البيضاء الواسعة، وهناك من يلبس بيجاما منزلية مغسولة وإن لم تكو بعد الغسيل، فبدت مكرمشة فى أكثر من موضع.

عرَّفونى على بعضهم. سألت عن الطبيب، فقالوا إن العيادة أهم من النادى. يصل إيراد الليلة إلى مائتى جنيه. وضابط الشرطة. فقالوا لى إن لهم ناديا خاصا بهم خلف المركز. وتحت قدمى كل منهم سيارة يمكنه الذهاب بها إلى المديرية. سألت عن وكيل النيابة. فأكدوا لى أنه لا يخالط باقى الموظفين، لأن ذلك قد يؤثر على حياده فى العمل، وإن كان السبب الحقيقى أن كثرة ظهوره وسط الناس قد تقلل من هيبته.

كان المكان واسعًا، قاعة ضخمة تتناثر فيها المناضد والمقاعد، وفى الأركان طاولات وشطرنج. والقاعة الرئيسية كانت تؤدى إلى قاعات أخرى صغيرة. وعلى باب كل قاعة لافتة تحدد وظيفتها، هذه قاعة مكتوب عليها مكتبة، وإن كانت الكتب غير موجودة. وقاعة ثانية مكتوب عليها أنها مخصصة لألعاب التسلية ولا توجد فيها لعبة واحدة. وقاعة المطعم فيها منضدة كبيرة وبعض الأطباق والأكواب وبقايا طعام منذ غذاء الظهر.

قلت لهم إننى سأتركهم مبكرا من أجل السفر إلى المديرية للمبيت فى لوكاندة. فعرضوا على المبيت فى استراحة النادى، وهى خالية هذه الأيام. قبلت بشرط أن أدفع تكاليف مبيتى وإقامتى. قالوا لى إن ذلك موضوع بينى وبين المسئول عن النادى. وهو نفسه عامل النادى الذى استقبلنى، فهو الخفير والعامل والموظف والطباخ والقهوجى،

بل إن أسرته تقيم معه فى قاعة توجد خلف الحديقة . وتأكدت من ذلك عندما شاهدت غسيلا منشوراً أمام القاعة على منشر يربط بين شجرتين .

ثم انتقلوا فجأة إلى الحديث عما جرى . كانوا يشيرون له بكلمة الحادث . قال شاب مزهو بشبابه ، إن الحادث سببه أزمة الذكورة والرجولة فى المجتمع . النتاية التى جاءت من الشمال لم تجد من يشبعها . الولد ابن أمه الذى تزوجها لم يقم بذلك . والرجل الوحيد فى البندر الذى اقترب من دائرة حياتها . جاوز الستين من العمر وله زوجات كثيرات ، وفصيلة من الأبناء والأحفاد لا يعرف عددهم ولا أسماءهم . كان فيه هيكل الرجل الخارجى ، ولكنه كان يخلو مما تتطلبه البندرية القادمة من الشمال .

- إنه احتجاج نسائى صارخ .

كان الذى نطق بهذه الجملة هو الإخصائى الاجتماعى فى المدرسة الثانوية . أكد أن اختصاصه فى التربية وعلم النفس . وأنه أمام أى حادث يحصل فى البلد لديه شعار وحيد يتلخص فى ثلاث كلمات :

- فتش عن المرأة .

رد عليه من وصف كلامه بأنه تبسيط للأمور . فالمسألة أعقد من ذلك . ولكنه مارس حرية الكلام فى موضوع لم يكن يجرؤ أحد على الكلام فيه من قبل . وأن المسألة لها أبعاد أخرى . هناك أرض ومعاملات ، وحماية . ثمة طرف يحمى طرفا آخر . وذلك عرف

موجود فى الصعيد، علاوة على تداخلات كثيرة. والأمور ستتضح فى التحقيق الذى يتم الآن.

رئيس الشهر العقارى، وهو رجل قانونى، وصف ما قيل بأنه كلام فارغ، وأن الأنثى البحراوية لا يمكنها أن تقتل ناموسة، وأن وسيلتها الوحيدة لقتله كانت أن تسحبه من محاشمه، ولكن الطريقة التى قتلته بها تؤكد أن هناك من ساعدها.

وحيث إنه لا يوجد - أكمل رئيس مكتب الشهر العقارى - فى الناحية كلها من يجرؤ على التفكير فى قتل هذا الرجل. فلا بد وأن هناك بطلاً جاء لكى يقتله.

سألوه فى صوت واحد:

- من هذا الذى يجرؤ؟

قال فى بساطة:

- الخط هو القاتل.

قالوا إنها تخاريف ليل، وإن الخط قتل منذ أكثر من ثلاثين عاما، وإنه مجرد أسطورة يتغنى بها أبناء الصعيد، عندما يكتشفون بطولة هذه الأيام المفقودة ويحدقون بحثا عنها. قال المتحدث إن الخط لم يقتل، لقد هرب فى الخمسينيات من رجال الأمن. وقالوا إنهم قتلوه حتى يبدو أنهم فعلوا شيئًا ما. الخط لم يمت، وهذا الحادث يعد تمهيداً لعودته من جديد، وسيعلن عن هذه العودة بعد هزيمة المحقق.

نظر إلى وسألنى:

ـ هل رأيت ليلة القدر من قبل؟!

أجبت بالنفى. قال لى إن حظى من السماء، وإننى يجب أن أترك كل هذه الصغائر وأبحث عن الخط من أجل عمل مقابلة صحفية معه، ستهز البلاد عند نشرها. وتجعلها تقف وجها لوجه أمام زمن الرجال الذى ولى ولن يعود. قال الإخصائى الاجتماعى، إن الأمر يبدو مثل الحلقة المفرغة. أزمة الرجولة فى مجتمع هجره الرجال الحقيقيون، تجعلنا نبحث عن الرجال الموتى.

قال لى رئيس الشهر العقارى:

ـ ابدأ فى تدوين الأسئلة وسأحدد لك موعدًا مع الخط.

تهت فى ضباب الحكايات والكلمات، وشعرت بتعب اليوم كله يتجمع فى هذه اللحظة. واكتشفت أن الأستاذ مجلى مازال موجودا. ربما تصورت أنه انصرف بسبب صمته. اقترب منى وأخذنى على جنب. طلب منى بصوت هامس أقرب إلى الوشوشة، ألا أنسى حكاية القوانين الاستثنائية، ونبهنى إلى ضرورة الاهتمام بمعرفة ديانة كل من يقابلنى. وعندما قلت له إننى لا أهتم بذلك الأمر الذى أعتبر أن الاهتمام به من الأمور المتخلفة التى تعود إلى نظرة متعصبة ضيقة، وأن روح العصر تخطت هذه الأمور. قال إن الأمر سهل. على فقط الاهتمام بالأسماء. أن أطلب من كل إنسان أن يقول لى اسمه رباعيا أو ثلاثيا، وسأعرف ديانته من اسمه. كاد أن يبدأ فى محاضرة عن الأسماء الواضحة والأسماء الدينية والأسماء الحيادية، والأسماء الفرعونية. لولا أننى قلت له إننى أحب الاستماع إلى هذا الكلام، ولكن ليس الآن.

عاد الأستاذ مجلى، فهمس فى أذنى أن هذه القضية هى أساس كل كلامه الذى قاله لى منذ حضورى، وبدت على وجهه حالة من خيبة الأمل الشديد. وقال إنه متأكد أننى لم أفهم كلامه على وجهه السليم، وعرض على أن نلتقى مرة أخرى. ولكن على انفراد حتى يشرح لى الأمر بمزيد من التفصيل فوعدته بذلك

ناديت على عامل النادى. قلت له إننى أود المبيت فى الاستراحة. أخذنى إليها دون مناقشة. وضعت أشيائى فى إحدى غرف الاستراحة التى لها بلكونة تطل على الشارع. طلب منى عامل النادى أن أوقع على ورقة مطبوعة بأننى نزلت فى استراحة النادى. كان فى أعلى الورقة كتابة تقول إن النادى تابع لوزارة الشئون الاجتماعية، وأنه تابع للحكم المحلى من الناحية الإشرافية، وأن خدماته تقدم مجانًا. وقد وقعت أننى أقمت مجانًا فى استراحة النادى رغم أننى دفعت أجر إقامتى لعامل النادى. الذى قال لى إن الاستراحة غير النادى، وإن كلمة مجانًا مطبوعة فى هذا الورق منذ سنوات، ولكن الحال تغير، والورق المطبوع فى النادى لم يتغير. فقلت له إننى أفهم هذا.

طلبت منه أن يعد لى عشاء. فمد يده طالبا ثمنه. وقال لى إننى حر فى اختيار الطعام الذى أريده. فهو سينزل لشرائه من دكان البقالة. قلت له إننى أريد النزول لوداع الموظفين. قال لى إنه من الأفضل النزول لهم بالبيجاما. رفضت ذلك. نزلت إليهم بملابسى. استأذنت منهم. قالوا كلهم إلى اللقاء. وفى غرفتى كان العشاء معدًا، عشاء جاف لم أشعر بطعمه وأنا أتناوله، ناديت على العامل. وطلبت منه دورقًا فيه ماء للشرب.

قال لى العامل: أى ماء؟ لا بد وأن أحبس ببراد شاى. سألنى هل أحبه شايا صعيديا، أم بحراويا؟! لم أكن فى حاجة لسؤاله عن الفارق بين الاثنين، قلت له: نجرب الصعيدى. جاء ومعه براد وكوب شاى صغير ومحندق، رفع البراد عاليا بيده وصب الشاى. بدا لون الشاى أسود لم يكن فيه أى أثر للون الأحمر.

عندما شاهد دهشتى. قال لى إن الصعيدى يحب رؤية لون الشاى الأسود فى الكباية قبل شربه. إنهم يشربون بأعينهم أولا، ثم يتذوقونه بألسنتهم. لهذا لا بد وأن يكون الكوب مصنوعًا من الزجاج. الكبايات الزنقوا التى كانت تستخدم بحرى، راحت عليها.

كان موسوعة من المعلومات عن الصعيد، وإن كانت لهجته تقول إنه ليس صعيديا. كان الشاى لزجًا وسميكًا، ترك أثرًا على لسانى. فكرت فى الاعتذار عن شربه، ولكنى تراجعت. كان فرج وهو يصب لى الشاى يربط بين الرجولة والقدرة على شربه.

قلت أمرى لله. أتعامل معه على أنه دواء لا بد من تناوله. قبل النوم كنت أغمض عينى وآخذ شفطة الشاى. وكان فرج قد أحضر لى دورقًا كبيراً من الماء. لم أفكر ـ مجرد تفكير ـ فى التأكد من نظافته. وضعته بجوارى. وأسلمت نفسى لليلة أخرى من السهاد والأرق.

طلبت من فرج أن يوقظنى مبكراً. ألا يتركنى أنام حتى الضحى، لكى أبدأ يومى مبكراً، قبل أن تحمى الشمس. وأسلمت نفسى للنوم، لم أفكر لحظة مجىء النوم إلا فى خوفى من زيارة يقوم الخط بها لى. وهذه الزيارة إما أن تتم فى المنام، إن كان الخط قد مات وشبع موتا، أو أن أفاجئ به يوقظنى من نومى، لكى يدلى بالحديث

الخطير لى . هذا إن كان مازال حيا يرزق . كما أكد لى أحد الموظفين الذين يعيشون فى البدارى .

بعد نومى جاء العسكرى أو الصول بدير يطلب مقابلتى لأمر مهم لا يحتمل التأجيل إلى الغد . وفرج قال إننى آكل أرزا مع الملائكة . وطلب منه الحضور فى وقت آخر . وجد صعوبة فى صرف بدير . الذى كان يلح فى طلبه إيقاظى من النوم . كان مصراً على الكلام معى فى أمور لا تحتمل التأجيل إلى الغد . وكان فرج مصراً بنفس القدر على عدم إيقاظى .

نظر فرج للأمر على أنه من أعراض جنون بدير .

٥ـ المقهى

زعق الوابور ع السفر

عيطت رايحين فين

رايحين تغيبوا سنة

واللا تغيبوا اتنين

. . أيقظنى فرج عندما كان المؤذن يرفع آذان الفجر، كان الظلام ما يزال مستتبا، ولا يصل إلى سمعى سوى نباح كلاب ونقيق ضفادع. أما شقشة العصافير فلم يكن قد حان أوانها بعد. فكرت أن ألومه، ولكنى تذكرت وأنا بين النوم واليقظة، أننى طلبت منه ليلة الأمس أن يوقظنى مبكراً. ربما كان هذا الوقت يعنى التبكير بالنسبة له.

كانت عندى رغبة فى معاودة النوم من جديد، ولكن فرج لم ينصرف. مد يده لى. وقال لى إننى لو كنت أرغب فى تناول إفطارى، على أن أدفع له، حتى يذهب ويشترى لى إفطاراً. لم يقل من عند البقال، سألته عن المبلغ الذى يطلبه. ذكر رقماً. مددت يدى. أخرجت المبلغ الذى طلبه من جيبى. أعطيته له بطريقة آلية. وأنا أستدير حتى استأنف نومى. سألنى عن الوقت الذى يوقظنى فيه. قلت له وأنا أتثاءب إننى سأصحو من تلقاء نفسى عندما يحين هذا الوقت.

انصرف فرج. وإن كان استئناف النوم مرة أخرى قد بدا لى مستحيلا. واربت النافذة. نظرت فى الشارع. ورغم الضوء الخافت كانت الأسلحة فى كل مكان. خفراء وعساكر ومخبرون كانوا يتناوبون من الأصوات ما يثبت أنهم يقظون، يتابعون حتى دبة النملة والناس نيام.

بعد أن أصبح الصباح مؤكداً. والنهار، أول نهار لى فى الصعيد، يعلن عن نفسه. وعندما كان فرج يضع إفطارى الذى اشتراه أمامى. سألته عن دليل تليفونات البندر. وضع يده اليمنى حول أذنه اليمنى ليسمع الكلام جيداً. لم يفهم ما أقصده. قلت له: دفتر فيه أرقام تليفونات البندر.

قال لى إنه أول مرة يسمع فيها عن هذه النوتة. ربما كانت واحدة منها فى السنترال. ثم توقف وسألنى: لماذا أبحث عنها؟ قلت له حتى اتصل بالمأمور وضابط المباحث ووكيل النيابة. سألنى: عندك شكوى؟. أم طالب حراسة؟ قلت له: لا هذا ولا ذاك. ولكن عندى عمل معهم. قال لى انتظر. العجلة من الشيطان، هم الذين سيبحثون عنك. إما أن يرسلوا فى طلبك، أو أن يحضر واحد منهم إليك هنا، بمجرد أن يشموا خبراً بوجودك فى البندر. وأولاد الحلال الذين يبلغون كثيرون. ولا بد وأنهم بمجرد معرفتهم بوجودك هنا سيأتون إليك فوراً، وحتى أطمئن أكمل:

- هذا شغلهم يا سيدى.

تحولت الغرفة التى خصصها فرج لى فى الاستراحة إلى مكان أمارس فيه حياتى كلها. نومى - هذا إن كنت قد نمت - ويقظتى، وتناول طعامى. وقد تم هذا الأمر بدون ترتيب مسبق من جانبى، ولا أعتقد أنه كان هناك أى ترتيب من قبل فرج.

عندما كان يضع الإفطار أمامى. الذى كان عبارة عن فول مدمس. أشار إليه وقال:

ـ فول طياب. مزروع فى الصعيد.

لماذا يصر فرج على التعامل معى باعتبارى قادما من بلاد أخرى، إن كان هناك إصرار على الاستمرار فى هذا المنهج فى التعامل مع القادمين من بحرى أخشى أن يأتى يوم نحصل فيه على تأشيرة قبل الدخول إلى هنا وتأشيرة عند الخروج، وربما كان مع القادم جواز سفر بدلا من البطاقة.

كان بجوار طبق الفول الذى كان يعوم فى الزيت، طبق آخر فيه نوع من الزبادى، القريب من اللبن الرائب، ولفت مخلل وأرغفة عيش. سألنى فرج هل يمكننى أن أحدد إن كانت عيش شمسى أو بتاو.

مرة أخرى، ولن تكون الأخيرة، لديه إصرار على البعد السياحى فى كل ما يقدمه لى. نيته سليمة. وهدفه إما إسعادى أو وضعى فى الجو العام. ألا ينظرون إلى على أننى ضيف؟ سيكتب عن كل ما شاهده فى هذه البلاد؟ وتلك هى التوابل التى ستبقى فى الذهن بعد العودة.

قلت له إنه مازال أمامى أيام أخرى، لا أعرف عددها يمكنه أن يحضر لى ما يشاء من كل ما ليس له أى وجود فى بحرى. ومن باب أن أطمئنه، قلت له: إننى لا بد وأن أعاود الحضور إلى هنا، بعد ذلك، أكثر من مرة.

قبل أن ينصرف وهو يتكلم عن شاى الصباح الذى يختلف عن شاى الليل. رجوته ألا يتعب نفسه؛ لأننى أحب أن أشرب الشاى فى

المقهى القريب. سألته: أليس فى البلد مقهى يطل على ميدان البندر الكبير؟! قال لى إنه الميدان الوحيد، فيه المقهى والمطعم، وأمامهما المركز وتتناثر المصالح الحكومية حول هذا الميدان على شكل دائرة، مكتب البريد، البنك، بنك التسليف الزراعى، الشهر العقارى، مكتب الصحة، تفتيش التربية والتعليم، التفتيش الزراعى، مصلحة المساحة، مكتب البريد والتلغراف والتليفون العمومى.

قلت، وأنا فى منتصف المسافة بين حديث النفس والكلام مع الذى يقف أمامى، إن ذهابى للمقهى يمكننى أيضًا من شراء الصحف، فتلك عادة لازمتنى حتى قبل أن أعمل فى المهنة.

ضحك فرج وضرب كفا بكف. قال لى إن بالى رايق. صحيح أننى قادم لتوى من الشمال البعيد. طالع من تحت. إن الجرائد التى أتكلم عنها إن جاءت فى المساء يكون ذلك من حسن الطالع.

جميع الذين يقرءونها فى البندر تعودوا على وصولها فى اليوم التالى. كل ما فيها بايت، مثل العيش الرجوع الذى يبيعه فرن المركز ثانى يوم. إن الجرائد لو جاءت فى نفس اليوم تكون وصاية، وللبهوات الكبار، المأمور، وحكمدار أمن الدولة، الذى أقول عنه ضابط المباحث، والبيه وكيل النيابة. وهذا امتياز خاص بهم ولا يراها أحد من عموم الناس إلا عندما تصل - إن وصلت - فى صباح اليوم التالى:

- والمجلات؟!

قال لى ضاحكًا:

- فى المواسم والأعياد والعطلات الرسمية.

هكذا أنا عندما أكون على سفر، لا أشبع من نومى، ولا أستطيع الاستمتاع بيقظتى، مع أن السفر نفسه حالة تولد فى النفس أكبر قدر من الدهشة، تجعلنى أتعامل مع كل أمر من أمور الحياة باعتباره يقع لأول مرة.

قلة النوم ليلا، وربما انعدامه. وهذه هى ليلتى القلقة الثانية، تجعل نهارى صداعا مستمراً. ولا أعرف كيف سيكون حال نومى فى الليالى القادمة. وهكذا تظل الراحة كالسراب، لن أشعر بها إلا عندما ألامس الفراش فى بيتى بعد العودة من هذه الرحلة.

كان الطعام جيداً، وإن كانت هناك مشكلة ما، فهى قدرتى على تذوقه والتعامل معه. بعد أن تناولت إفطارى ارتديت ملابسى، وتأهبت للخروج متجها إلى الميدان الذى يسميه فرج الوسعاية.

أصر فرج على أن يصحبنى بنفسه إلى المكان. قلت له إن الذى يسأل لا يتوه. قال لى إن هذا يوم الحشر. وهو ذاهب إلى هناك سواء معى أو بمفرده، هل تفوته الفرجة؟ الحرمة ستمثل اليوم كيف قتلت زوجها وعشيقها. نادى فرج على زوجته. طلب منها أن تأخذ بالها من النادى والاستراحة حتى يعاود. وراءه مشوار مهم.

كنا نمشى ببطء، وكان فرج يحكى لى كل ما سمعه عن هذه الحكاية، وأنا أستمع إليه فى صمت. قال بعض الناس إن هذا التمثيل سيتم فى الوسعاية. والبعض الآخر أقسم بأغلظ الأيمان، إن التمثيل لا بد وأن يجرى فى الأماكن التى وقع فيها الحادث.

قال لى فرج إنه وقع خلاف ليلة أمس. تحول الناس إلى فريقين. فريق يقول إن الحرمة ستصل إلى مكان التمثيل والكلابشات الحديد في يديها. والفريق الآخر، قال إن الحريم توضع فى أياديهن سلاسل. أما الكلبشات فهى للرجال. إن الحرمة أول امرأة قاتلة منذ أن بنى هذا المركز، وربما منذ أن وجد الصعيد كله. وجميع هذه الوقائع تحدث لأول مرة.

اختلف الرجال مرة أخرى، حول السلسلة، هل تكون من الفضة؟ أم من الذهب؟ وحسدوا المرأة حتى على وضعها. وإن كان لا أحد يعرف ماذا ينتظرها، المؤبد أم حبل المشنقة؟!

ما أن اقتربنا من الميدان أو الوسعاية، حتى وجدت زحاما جعلنى أتساءل: من أين جاء كل هؤلاء الناس؟ جمهور غريب. رجال وشيوخ وأطفال. شعور مشعثة وذقون نابتة، وبعضها طويل. من الواضح أن حلاقتها مهملة. وملابس متسخة، كان أهم ما لاحظته وجود بعض النسوة، كن قليلات ومتناثرات، وكانت هناك مسافة غير منظورة بينهن وبين الرجال.

المرأة كتلة متحركة من السواد. لا تتكلم عن حجاب أو نقاب. فما رأيته من النساء، كان حركة العينين فقط. ومساحة السواد التى تحيط بالعينين من كل جانب، كانت تمنحها جمالا من الصعب وصفه.

كنت أريد التحديق فى الأعين التى بدت متسعة. أكثر الأعين اتساعا التى شاهدتها فى حياتى. كانت فى الميدان، فى ذلك الصباح، ربما كان السبب فى اتساعها هو الإطار الذى يحيط بالعينين. ولكنى خفت من لغة العيون. الغريب أعمى حتى ولو كان مبصراً. وأنا أريد

العودة إلى القاهرة. أقصد مصر أم الدنيا. كما يقولون عنها هنا. ولا أريد أن تتكعبل رحلتى فى مثل هذه القصص الطارئة التى لم أعمل لها حسابا لحظة البدء فى الرحلة.

المقهى كان مطعمًا ومقهى فى نفس الوقت. وقد أحضر لى فرج إفطارى منه، لأنه كان يقدم لزبائنه نفس الطعام الذى اشتراه لى فرج، باستثناء أقراص الطعمية التى يبدو أنها لم تكن قد قليت عندما جاء فرج إلى هنا. ورغم الزحام الشديد فى الميدان لم يكن المقهى مزدحمًا. عزمت على فرج. دعوته لشرب الشاى وتدخين الشيشة استغرب الكلمة. قال لى إننى أقصد البورى. هززت رأسى دليل الموافقه.

نظرت فى الجالسين على المقهى، لم أشاهد فيهم أحدا من الذين التقيت بهم مساء أمس فى النادى. لا بد وأنهم فى عملهم الآن. فمن يذهب إلى النادى مساء يكون مشغولا فى هذا الوقت فى مكان عمله.

فى الميدان كتل ضخمة من الناس، والعساكر يشكلون كردونا لا يستطيع أن يتخطاه أحد من الناس. والملابس التى كانت يرتديها العساكر سوداء. وقد رأيت أربعة عساكر يحملون صندوقا. سألت عما فى الصندوق، فقيل لى إنه صندوق ذخيرة، ومن حركتهم يبدو أن الصندوق كان ثقيلا، لأنهم كانوا يتعثرون فى مشيتهم. كانت وجوههم قطعة من التعاسة والإرهاق والتعب.

كردون العساكر يشكل دائرة، ترسمها وقفة العساكر، ووراءهم مباشرة كتل غامضة من الناس، وثمة طنين من الكلام يصل إليك،

من الصعب أن تتبين ما يقال بالضبط ، همسات ووشوشات وأصوات صاخبة ، ولكن الصمت الذى يغطى الميدان مثل غيمة ـ أقصد يغطى الوسعاية حتى لا يغضب فرج منى ـ هذا الصمت يمتص الأصوات ويحولها إلى جزء من السكون الذى يغطى المشهد كله .

قال لى فرج ، إن الناس الذين أراهم جاءوا من العب كله ، فاليوم هو يوم السوق الأسبوعى ، ومكان السوق وراء المركز ، كل المصالح وأشغال الناس والأماكن التى يتم تداول الأموال فيها لابد وأن تكون قريبة من المركز ، من يأتى لقضاء مصلحة يجب أن يرى المركز بعينيه ، قال كلمة واحدة وهو يتنهد . . أمان .

جلس فرج فى انتظار الشاى والمعسل ، أحسست أن فكرة العزومة قد سلطنته على الآخر ، بعد أن جلس كان حريصا على أن يضع قدما على قدم ، وإن كانت هذه الحركة قد أوقعت الزنوبة التى كان يشبكها فى أصبع قدمه الكبرى ، صفق بيديه ، حضر له الولد القهوجى ، فوجئ بجلسته ، قال لفرج إنه بعد أن وضع القدم المعطوبة على القدم المكسورة ، من حقه أن يشخط وينتر ، مثل أى زبون .

طلب فرج بورى معسل ، مع أنه لا يوجد سوى المعسل فقط ، وشاى «سكر كتير» ، ثم سيحبس بكنكة قهوة سكر زيادة . كان فرج جلدا على عظم ، وهو ينظر إلى زيادة السكر على أنها دليل على الكرم الشديد من وجهة نظره .

طلب منى أن أخمن من أى بلاد الله هو ، قلت له بدون أى تخمين من جانبى ، إنه من بحرى ، غضب ، لأن الناس ليس لديها سوى

بحـرى أو قـبلى ، مع أنه ليس من بحـرى ولا من قـبلى ، لم يشـأ أن يتعبنى أكثر ، قال لى إنه من الواحات .

وأشـار إلى ناحـيـة الغـرب ، وأنه هج وطفش من هناك ، وتلك حكاية سيحكيها لى فى الليل ، بعد أن يمشى المقاطيع الذين يسهرون فى النادى كل ليلة ، ولا يطلب أحد منهم آية مشاريب منه . وإن طلب يكون على النوتة ، والدفع حين ميسرة ، وهذه الميسرة لا تأتى أبدا .

قلت له ، بعد أن ينتهى من شرب الشاى ، وتدخين البورى ، ويحبس بالقـهـوة ، فـإننى أطلب منه أن يخطف رجله ويسأل لنا عـمـا سيـتم . استبشع طلبى ، قال لى وهو يشير ناحيتى ، إننى الوحيد فى كل هؤلاء المخـاليق الذى من حـقـه أن يسأل ، ويمكنه أن يسـأل ، من يجـرؤ على السؤال من الأهالى ، يأخذونه تحرى فورا ، وحلنى إن تركوه فى حاله . أشرت له وتساءلت ، حتى أنت؟ قال لى إنه ليس فوق رأسه ريشة .

الذين كانوا يجلسون بجوارنا ، كانوا يفطرون لحظة وصولنا ، وبعد انتهاء الإفطار مسح كل واحد يديه فى ذيل جلبابه . وبعضهم أخرج علب الدخـان ليلف السـيـجـارة ، والبـعض الآخـر طلب البـورى مع الشـاى ، كانت عـملية لف السيارة من الدخـان الفرط فيها متعة تفوق التدخين نفسه ، امتلأ المكان بالدخان ، دخان السجائر ودخان المعسل .

لمح فرج رغبتى فى القيام بعيدا عن هؤلاء الرجـال ، الذين تحول أنف كل واحد منهم إلى مدخنة ، نظر فى أرجاء المقهى ، لم يكن هناك كرسى واحد خال . مثلما كان الحال لحظة حضورنا ، طلب منى أن أتحمل هذه الروائح وذلك الدخـان ، الذى لن يبقى طويلا وسيخرج مع الهواء .

فجـأة . .

دوى صوت الرصاص ، هذا أقوى صوت سمعته فى حياتى كلها ، رأيت بعينى رشاشات تنطلق منها النيران فى الميدان ، أول ما تبادر إلى ذهنى ، أن القاتلة حضرت ، وجرى ضربها بالنيران من أهالى أحد القتيلين ، قبل أن تمثل عملية قتلهما ، تذكرت ما قيل لى بالأمس ، من أنه مستحيل أخذ الثأر من حرمة ، يبدو أن الكلام فى هذه البلاد ، فى جانب ، والفعل يبقى فى الجانب الآخر ، ولا علاقة بين الأمرين ، لم يكن هناك وقت ، ولا إمكانية للكلام مع فرج .

بعد الطلقات الأولى سمعت أصوات زغاريد مختلطة مع بكاء وعويل ، جذبنى فرج بكل قوته إلى تحت المنضدة التى كانت عليها الطلبات ، كاد أن يصيبنى من عنف الشدة ، رأيت العنكبوت يعشش فى الرخام الذى توضع أعلاه الطلبات التى لم نكن قد انتهينا من شربها ، مرت فترة صمت وبعدها كانت هناك طلقات متناثرة .

صعد فرج أولا ، نظر فى جميع الاتجاهات ، وطلب منى الصعود بشرط ألا أنطق ، أشار إلى فمه طالبا منى عدم التنفس ، أي صوت قد يدفع الإنسان حياته ثمنا له ، وألا أرد على أى سؤال يوجه إلىَّ .

جاء الذين كانوا يطلقون الرصاص ، ثلاثة من الشبان الصغار ، أكبرهم لم تكن قد نبتت ذقنه بعد ، ومع هذا كان يحاول أن يصب نفسه فى قوالب الرجال ، على باب المقهى أخذ السلاح منهم رجلان وامرأة ، وانصرفوا ، تم هذا دون كلمة واحدة ، والشبان الثلاثة جلسوا فى أماكن أخليت لهم لحظة دخولهم المقهى .

صفق واحد من الشبان الثلاثة بيده، وعندما جاءه صبى المقهى مرعوبًا، سأله إن كان قد شاهد أو سمع أى شىء، نفى الصبى بصوته وملامح وجهه ويديه، قبل أن ينصرف جريا من أمامهم، طلب منه شربات، لكزه الذى بجواره قال له إن الشربات سيشربونه فى البيت بعد أن تقام ليلة مأتم المرحوم، وهو المأتم المؤجل منذ سنوات طويلة.

كنت أريد الخروج من المقهى، حتى أرى القتلى، ولكنى خفت. كنت أتمنى الاقتراب من هؤلاء الشبان أكثر، حتى أتصيد تعبيرات الوجوه، ولكن الخوف عاودنى، بعد قليل، نزل البوليس، خرجوا من باب المركز الذى تمت المذبحة أمامه، لا أعرف ماذا فعل كردون العساكر لحظة إطلاق النار، وإن لم أكن متأكدا إن كانوا مسلحين أم لا، وإن كان سلاحهم فيه ذخيرة من عدمه، وإن كان من حقهم استخدام هذه الذخيرة أم لا.

أسئلة كثيرة احتبست بداخلى، لم يكن أمامى سوى فرج الذى كان يشير إلى ألا أتحرك أو أتكلم، أو أفعل أى شىء، كان هذا حال الجالسين فى المقهى، والجماهير المحتشدة فى الميدان، كان الضابط يتحرك فى الميدان تحت حراسة مسلحة، الآن ظهر السلاح بأيديهم، عاين الضابط المكان ورسم بالطباشير خطا حول الجثث التى كانت الدماء تنزف منها بغزارة.

كل مركز يكون بالقرب منه مبنى للإسعاف، تقف أمامه سيارة إسعاف، ومبنى للمطافى، تقف أمامه سيارة مطافى، وكلتاهما تكونان على أهبة الاستعداد، للانطلاق فى أى لحظة، فى النهار أو الليل.

فكرت أن أطلب من أى إنسان، أن يتصل بالإسعاف، ربما لا يكون المصابون قد ماتوا، قد تكون فى بعضهم الروح، والنبض لا يزال، بعد المعاينة حضر الضابط وحوله الحراسات إلى المقهى، وقف فى مدخل المقهى، لم يجد الشبان الثلاثة الذين قتلوا، كان دخان البنادق التى استخدمت فى القتل والتى أخذها منهم أقرباؤهم على باب المقهى مايزال يحوم حولهم، يشكل غلالة رأيتها بنفسى فوق رءوسهم أو ربما تصورت هذا.

قال الضابط موجها سؤاله لجميع الجالسين:

ـ من رأى القتلة؟

إن كنت أنت قد فكرت فى الرد، يكون هناك أى إنسان قد تحرك لسانه فى فمه، لم يرد على الضابط أحد، ردد سؤاله أكثر من مرة، وعندما كان الصمت هو الرد الوحيد عليه، انصرف وهو يقول من لديه أى أقوال عن الحادث، يمكنه الحضور إلى المركز حتى يدلى بأقواله.

انصرف الضابط، عائدا إلى المركز، بعد أن أعطى تعليماته بعدم تحريك الجثث من مكانها، وترك الأعيرة النارية الفارغة فى الأمكنة التى وقعت فيها، حتى يحضر خبير البصمات وخبراء المعمل الجنائى والبيه وكيل النيابة، ويقوم كل واحد بالعمل المطلوب منه.

كان معه ضابط أقل رتبة منه، أصدر له هذه الأوامر وهو يتجه إلى المركز، والضابط الصغير يعيد إصدار الأوامر والتعليمات مرة أخرى، وبنفس الطريقة تقريبا لحضرة الصول، الذى قالها بدوره للعساكر.

بدأ الناس فى الانصراف، ولكن بهدوء وفى صمت، كانوا يتعاملون مع حدث يقع كل يوم، لم تكن هناك دهشة فى الأعين ولا استغراب على ملامح الوجوه، ولا خوف ولا فزع، أو حتى إحساس بالرهبة.

جاء من يقول إن عرض قاتلة زوجها وعشيقها قد تأجل حتى يتم الانتهاء من تحقيق ما جرى اليوم، ونحن ننصرف من المكان، سألت فرج:

- إرهاب وتطرف؟!

قال لى:

- لا.

- سرقة؟!

حرك يديه علامة النفى، وعندما استفهم منه كل جزء من وجهى، قال لى:

- حكاية كل يوم.

لم يبد على أننى فهمت ما يقوله. أوضح:

- ثأر.

بدأ يحكى لى ونحن ننصرف من المكان متجهين إلى النادى، إن هؤلاء الشباب، أخذوا بثأر جدهم، الذى قتل قبل أن يولدوا، ولأن والدهم مات من الحسرة على أبيه، وكانوا هم أطفالا فى ذلك

الوقت، كانوا فى اللفة يرضعون، فقد كانت أول هدية لكل منهم بندقية، وكانت المهمة التى يعدون لها هى الثأر.

الليلة سيقام المأتم المؤجل منذ قتل الجد، كما أن واحدا من هؤلاء الشبان الثلاثة، لا بد وأن يقتل ذات يوم، ذلك أن كأس الدم لا بد وأن يدور على الجميع.

تساءلت - بينى وبين نفسى - بصوت تعمدت ألا يسمعه فرج: من يوقف مسلسل الدماء فى هذه البلاد. من؟!

٦ـ الأقصـــــر

تقع على شـــاطئ شـــرقى النيل
بالصعيد الأعلى، فوق قوص، وإنها
أزليـة قـديمة ذات قـصور، ولذلك
سميت الأقصر، كأنها جمع قصر.

ياقوت الحموى

. . هزنى ما جرى، مع أن هذا هو يومى الأول، وإن حسبت يوم السفر يصبح الثانى، فكرت فى السفر، سألت فرج فجأة لحظة وصولنا إلى النادى، الذى كان مهجورا فى هذا الوقت من النهار:

ـ هل الأقصر بعيدة من هنا؟!

رد على سؤالى بسؤال من عنده:

ـ قوام زهقت؟

وقبل أن يتكلم عن عدم تحملى، وأعصابى التلفانة، قلت له إننى سأذهب اليوم وأعود غدا، وربما أرجع فى نفس اليوم، سألقى نظرة فقط، وأغير جو، ثم أعود، لدى مهمة هنا لا بد من إنجازها.

اقترح على أن أكتب عن الذى شاهدته اليوم، قلت له إننى لا بد وأن أكتب عن كل ما شاهدته، ولكن هدفى هو الحادثة الأخرى، ثم إنك قلت ـ فى وصف ما جرى منذ قليل ـ إنه حكاية كل يوم، فهل فيها جديد، حتى يمكن الكتابة عنه؟

ما جرى ـ قلت لفرج بصوت حزين وفاتر ـ مثل الطفل اللقيط الذى نجده فى صناديق القمامة أمام مستشفيات الولادة فى القاهرة ـ أقصد مصر أم الدنيا ـ ينكره أبوه. وتستنكره أمه، لو ذهبت إلى الذين أخذوا بالثأر لأنكروا، حتى لو كان ذهابك وقت العزاء الذى سيقيمونه

لقتيلهم. ولو سألت أهالى القتلى. لقالوا لك إنهم لم يقتل لهم أحد. فهم يستعدون من الآن لرحلة الثأر التى ربما استغرقت سنوات.

قال لى:

ـ تخطف رجلك لحد الأقصر وتعاود من تانى.

قلت له:

ـ بالضبط؟!

وصف لى الطريق. أركب سيارة أجرة من البدارى وحتى أسيوط. ومن أسيوط أركب القطار حتى الأقصر. هناك سيدلنى الأسايطة على موعد القطار. كل القطارات تقف فى أسيوط والأقصر. لن تكون هناك مشكلة.

كان فرج حزينا وهو يودعنى. طلب منى أن أترك حقيبتى عنده ما دمت أنوى العودة. قلت له إننى لا أضمن العودة اليوم، ربما قضيت الليل هناك. أشرق وجهه لأول مرة منذ أن عرف أننى مسافر. قال لى إن الأقصر تعنى بالنسبة له الغوازى والفنادق الكبيرة، والمراكب العائمة فى النيل والسواح؛ خاصة السائحات المتقدمات فى العمر، واللاتى يبحثن عن الشبان الصعايدة. والآثارات فى البر الشرقى.

لم أشأ أن أسأله إن كان قد شاهد الأقصر، أم إن ذلك هو ما سمعه عنها. كما أننى لم أعرض عليه الحضور معى، وإن كانت صحبته لطيفة، ولكن المشكلة أن ظروفى المالية لا تسمح. أصر فرج ـ وكان متأثراً ـ على أن يذهب معى إلى محطة التاكسى. وحلف بكل الأيمانات أن يحمل الحقيبة عنى. ورغم أننى لم أكن قد قضيت معه

أكثر من يوم وليلة. إلا أنه قال لى عندما كانت السيارة تتحرك، إن العشرة لا تهون سوى على ابن الحرام.

فى أسيوط كانت هناك أكثر من وسيلة للسفر إلى الأقصر، التاكسى والأتوبيس والسيارة النقل والمراكب فى النيل والقطار. قلت لنفسى إن المراكب فى النيل تتطلب عشاقا. جميل أن يستخدمها الإنسان فى سيرها البطىء. ولكن بشرط أن يكون فى حالة حب. أما بالنسبة لباقى المواصلات فالقطار أفضلها جميعًا.

قبل رحلتى هذه لم أكن أعرف لم أفضل القطار فى تنقلاتى. البعض يقول: إن القطار أضمن وإنه آمن. ألم يقل أجدادنا عندما عرفوا الساعات لأول مرة إن الإنسان يمكنه أن يضبط ساعته على السكة الحديد؟!

كانوا يتحدثون عن آخر الكوارث التى وقعت. والفاصل الزمنى بيننا وبينها الذى يبدو طويلا. يقولون عن سيارات التاكسى هنا: النعوش الطائرة. يتحدث بعض الناس وهم يتحسسون جيوبهم عن رخص أجرة الانتقال. القطار أجرته أقل من نصف أجرة السيارة.

لكل منا أسبابه الخاصة. ولكنى أحب القطارات. هى الوحيدة التى تولد فى النفس وتشيع فى الوجدان حالة السفر. أتصور أن القطار عالم قائم بذاته. ابتداء من الوابور الأمامى، وحتى عربة السبنسة الخلفية، التى يقف على سلالمها الهاربون من دفع أجرة القطار.

أسمع صفارة الناظر. ناظر المحطة. ثم يدق الجرس. ويبدأ القطار

فى التحرك، بعد أن يصفر طويلا. هذه المرة، لم يقع اختيارى على القطار الفاخر الذى يفصلنى عن الناس. اخترت قطار الدرجة الثالثة. وعندما رأيته لأول مرة يدخل المحطة متعبًا مهدود الحيل. خيل إلى أنه خرج لتوه من القرن التاسع عشر. ليدخل الخمس سنوات الأولى، وربما الثانية من الربع الأخير من القرن العشرين. مكانه الطبيعى هو متحف السكة الحديد.

توقف القطار تمامًا. العربة لم يكن لها باب، يفتح ويغلق، الباب لم يكن موجودًا. إطار فقط هو الذى بقى. ولا يوجد باب بداخله. سلالم عربة القطار متآكلة، تتداخل مع النباتات الشيطانية التى نبتت وسط البلاط القديم الكبير المضلع الذى يغطى الرصيف.

النوافذ مثل الأبواب. إطارات فقط. لا يوجد زجاج بداخلها. هكذا تضم العربة جزءًا من الهواء الذى حولها، والراكب يرى الدنيا كما لو كان يمشى على قدميه. يتحرك القطار إلى مكان خارج المحطة، حيث لا رصيف تركب منه. عليك برمى حقيبتك إلى أعلى، بكل قوة ممكنة، ثم الصعود سلمة فأخرى.

يقولون لى - ولا بد وأن ملامحى وملابسى تؤكد غربتى لكل من يرانى - أن الخط ابتداء من هنا مفرد. قطار وحيد يمشى عليه إما نازلا نحو الجنوب، أو صاعدا إلى الشمال. والقطار وقف هنا بعد المحطة لأنه سيخزن حتى يمر القطار السريع. وإن الذى سأركبه قطار بطىء يقف فى جميع المحطات. يقولون من باب الفكاهة، إنه لو شاور له أحد الركاب بين محطتين، لوقف له.

سألت: ماذا يحدث مادام الطريق فرادنيًا إن تقابل قطاران؟ سرح

خاطرى لحوادث تصادم - لا قدر الله - يقولون لى إنها حالات قليلة الحدوث. فالقطارات كلما توغلت فى الصعيد الجوانى تقل جداً. ربما لحد الندرة. وإن تمت هذه المقابلات فهى تجرى فى المحطات الكبيرة. وفى كل محطة قضبان إضافية من أجل هذه اللقاءات، يطمئنونى، إن الأمور محسوبة بدقة. صحيح أن كثيراً من الأمور قد فسدت، ولكن يد الدمار والفساد لم تصل إلى السكة الحديد بعد.

أنظر إلى الناحية الأخرى. أرى الطريق الذى يقولون عنه الطوالى أو السريع. طريق الألف كيلو. أطول الطرق فى مصر. أسوان القاهرة. يكفى لسيارة واحدة. أسأل إن كان هناك طريق آخر يوصل الجنوب بالشمال. فيشيرون إلى الطريق النحيل ويقولون إنه الوحيد، والباقى مدقات قديمة.

أهم هذه المدقات وأشهرها مدق الأربعين. الذى تسير فيه قوافل الجمال من السودان إلى مصر. وأدرك فى لحظة اكتشاف مفاجئة وطارئة مدى غربة هذا الواقع، بالتحديد، عزلته. خط سكة حديد واحد. طريق مفرد تم رصفه منذ سنوات بعيدة. وعدد من المدقات الترابية فى وسط الصحارى.

تذكرت وأنا أستمع إلى هذا الكلام من الناس الذين يبدون راضين بهذا الواقع وسعداء به. تذكرت أن عذابى فى اليوم بليلة الماضيين. كان فى إجراء اتصال تليفونى مع القاهرة. سنترال وحيد فى مدينة كبيرة، يقوم بكل العمل المطلوب فيه. موظف وحيد، هو مسئول الاتصالات التليفونية، والبرقيات سواء كانت إرسالا لتلغرافات أو استقبالا لها.

خلق كثيرون طلبوا أرقاما، وجلسوا يأكل النوم ملامح وجوههم من طول الانتظار. يعف الذباب عليهم ولا يجدون حتى الحماس لطرد الذباب. والقليل منهم الذى يقلقه الذباب، يضع يده على وجهه وينام فى الانتظار. لست أدرى فى انتظار الذباب أو مجىء المكالمة التليفونية. المكالمة التى لا تأتى أبدًا؛ لأن الإنسان بعد ساعة من الانتظار يقول له الموظف المتعب والمرهق:

ـ خط مصر عطلان يا سعادة البيه.

ونحن نسمع صوت احتكاك عجلات القطار بالقضبان، يقول لى شاب:

ـ الصعيد. إنها البلاد المنسية.

أقول إننى تركت أسيوط ونسيت الصحف والمجلات. مادام الكلام عن النسيان. يقول لى الشاب إن الصحف تصل إلى عواصم المحافظات ـ فقط ـ يعود ليؤكد المحافظات المهمة، لأنه ليست جميع محافظات الصعيد مهمة. لتصل إليها الصحف فى اليوم التالى لصدورها. ثم تصل بعد يوم آخر ـ الثالث بعد صدورها ـ إلى المراكز والبنادر. ولا يعرف أحد متى تصل إلى القرى. هذا إن كانت تصل أصلا إليها. والمجلات. فهى نسخ فردانية تصل بعد أسابيع من صدورها.

يقول لى الشاب:

ـ أنت تتحدث عن أمور نعتبرها من قضايا الترف.

أسأله عن الإذاعة. يقول لى إنهم يسمعون جميع الإذاعات إلا

مصر. هواء هذه الأماكن مخترق من جميع الأصوات التى تأتى من جميع أنحاء العالم ماعدا مصر، التى يلتقطها الراديو ولكن بالصدفة.

ـ والتليفزيون؟!

ـ لا بد من خريطة دقيقة حتى نتمكن من التقاط إرساله.

يصل إلى أماكن ويخاصم أماكن أخرى. ولا يدرى أحد السبب فى ذلك.

قال لى باحث اجتماعى، كان يسمع حوارى مع الشباب، وقرر التدخل فى الكلام، بكل بساطة ممكنة:

ـ العزلة والاتصالات. ذلك هو جوهر المشكلة.

أكمل بعد قليل:

ـ أول اتصال حقيقى جاء إلينا مؤخراً. كان اسمه جواز السفر.. فالهدف هو السفر ولكن خارج مصر كلها. أن نصبح شعبًا من المهاجرين. هذا ما يراد بالصعيد، وما يُخطط له.

بعد وقت طويل وتخزين للقطار أكثر من مرة، حتى تعبره بسرعة جنونية القطارات السريعة، وصلنا إلى الأقصر. نزلت. تمشيت فى المدينة بهدوء وبطء. وسيلة الانتقال الداخلية هنا هى الحنطور. وإن كان أصحابه يبحثون عن السياح. وشكلى يقول إننى مصرى. كان الشارع الرئيسى الذى هو الكورنيش، نظيفًا ولامعًا ومصقولا، ولكن من ينظر إلى الحارات الخلفية، سيكتشف أنها موحلة وضيقة ومليئة بالذباب والقاذورات.

هنا يتصارع حاكمان. والصراع أبدى. إنهما النيل والفرعون. كان النيل يسير بصمت أزلى. والفرعون كان هناك على مدد الشوف. سألت نفسى: ولكن متى يلتقيان معًا؟! بدلا من هذا الصراع القديم الجديد؟

عندما وصلت إلى البر الشرقى، وأخرجت الكاميرا، وقررت استخدامها حتى لا تصدأ من الإهمال. أعطيتها لعسكرى. كان فى خلف الصورة وادى الملكات. طلبت منه أن يلتقط صورة لى. سألته إن كان يجيد التصوير. قال لى إنه بعد تركه الخدمة. سيعمل فى هذه الشغلانة من كثرة ما صور السياح هنا.

إنه يصورهم الآن بدون مقابل، ولكن بعد أن يمسك هذه الشغلانة، سيكون كل شىء بثمنه. ركن البندقية التى كانت معه. لحظة وقوعها على الأرض، خيل إلى أنها بندقية فارغة، ربما كانت لعبة. صورنى. سألته هل يحرس هذا المكان كله بمفرده؟ كانت خلفنا ساحة واسعة تحت بطن الجبل، وفى نهاية الساحة دائرة وادى الملكات الشهيرة.

قال إنه كان معه عسكرى زميل له، ولكن قبضوا عليه منذ يومين. دهشت. الأخبار الغريبة، والحكايات العجيبة تطاردنى حتى أمام هذه الآثار. وهل يمكننى أن ابتلع فضولى وأسكت؟ هل أنا قادر على عدم سؤاله؟ قال لى إن الحكاية لبخت مع العسكرى المسكين.

وأخبار العسكرى المسكين إن جماعة من السياح الإسرائيليين، سألوه عن امرأة تعمل فى السنترال فى البر الغربى، ولأن العسكرى على نياته، أبلغ حضرة الضابط الذى تحرك وراء الحكاية. فطلعت

المرأة التى تعمل فى السنترال، ويبحث عنها الإسرائيليون من بعيد لبعيد، ودون إجراء اتصال مباشر معها، طلعت هذه المرأة، إن سمعتها «مش ولابد». والأدهى والأمر إن فى الحكاية رأس ملكة لم يتوصل إليها المصريون بعد. يريد الإسرائيليون العودة بها إلى البلاد التى يحتلونها.

ـ وما دخل العسكرى فى الحكاية؟!

قال لى إن العسكرى وعد الإسرائيليين بالبحث عن المرأة التى تعمل فى السنترال وأن يوصلهم بها من تحت لتحت، وذلك قبل أن يبلغ حضرة الضابط بالأمر ويتلقى منه التعليمات التى يجب أن يتبعها. قال لى العسكرى إنه يبدو أن حكاية العسكرى زميله قد دخلت فى الغويط؛ لأنه علم من مصادره الخاصة أن الذين يحققون معه من رجال الشئون السياسية فى الوزارة رأسًا، وأنهم أتوا من مصر من أجل ذلك فقط. أخذت منه اسم العسكرى وذهبت إلى القسم. ولم يكن معى سوى اسمه عرابى أحمد، وأنه من بحرى.

فى القسم وجدت حالة فريدة من التكتم حول الموضوع. لا أحد يريد الكلام معى فيه. بل وجدت رغبة فى نفى ما جرى من أساسه، ولكن وجود اسم العسكرى معى جعل الإنكار مسألة صعبة.

ولأن الموقف الذى قابلته كان غريبًا، غيرت من موقفى أنا أيضًا. ادعيت أننى قريب العسكرى. نحن الاثنان من بحرى. وأنا وهو فرعان من شجرة واحدة. واكتشفت أنه هنا. ولأننى فى زيارة سريعة، سألت عنه، من باب الاطمئنان عليه فقط، والسؤال هو الذى أتى بى إلى هذا المكان.

يبدو أن قصتي وجدت من يصدقها ـ لأنني اكتشفت أن حجم التسهيلات الذى قدم لى كان كبيرا ـ وإن كانت هذه التسهيلات لم تتعد مقابلته لى فقط .

قابلته فى الحجز . وهمست له ، قبل الكلام وبعد السلام مباشرة ، أننى ادعيت أنى قريبه حتى أتمكن من لقائه ، وقد أسعده ذلك ، وتصرف باعتبارنا أهل . وقال لى إن هذه القرابة تشرفه وتسعده وترفع من مقداره فى نظر الناس هنا .

أخرجته زيارتى من حالته النفسية التى كان يمر بها . اقترب منا مخبر فأوشكت أن أقول له إننى زميل لهم . والأخ المحبوس منهم . ولكنى فوجئت بعرابى يرفع صوته . ويقول لى إن حكاية القبيلة التى نتمى إليها أنا وهو صحيحة . وإن والده ، لحظة وفاته ـ ترحم عليه طويلا ـ أبلغه بها . وأنه كان يؤجل موضوع البحث فى جذورها الأصلية ، أو فروعها التى هاجرت إلى كل أنحاء بر مصر ، حتى يحصل على إجازة طويلة ويتفرغ تمامًا لهذا الموضوع .

قبل أن ألقاه كنت قد رسمت له فى خيالى صورة العسكرى التقليدية ، الشارب الكثيف والجسم الضخم والإنسان السمين اللحيم ، الذى يلف حزام الميرى حول كرشه بصعوبة بالغة ، والعرق الذى ينز من ملابسه حتى فى عز الشتاء ، والمنديل المحلاوى الكبير الذى يلفه حول رقبته ، وياقة بدلته الميرى ، والصفارة المعلقة فى أعلى عروة سترته ، وعلى الكتف أربعة شرائط معلقة بدبوس قديم .

لم يكن فى العسكرى الذى قابلته فى الحجز شىء من هذا . كان أسمر شديد السمرة . طويلا لدرجة أنه كان يجد صعوبة عندما يجلس

ويفرد قدميه على آخرهما، ولكنه كان نحيلا، عروق رقبته تبدو لى واضحة، وتفاحة آدم فى زوره تصعد وتنزل مع الكلمات. وعندما طلب قليلا من الماء لكى يشرب، صعدت تفاحة آدم ونزلت مع كل قطرة ماء دخلت جسمه.

كان جلده مشدوداً على عظامه، ولأننى أشاهده وهو على هذا الحال. قال لى وحالة من المرارة تخرج مع الكلمات من فمه لدرجة أنه خيل إلى أننى شممت رائحة المرارة:

ـ المشكلة أنهم وصلوا إلى هنا.

قالها قبل أن يحكى لى ما جرى، ويخبرنى بما حصل.

سألته بدهشة:

ـ من هم؟!

قال ببساطة:

ـ الأعادى. العدا.

استدارت الكلمه بداخلى: الأعداء. جالت الكلمات فى خاطرى. قلت ولكن لنفسى: إن كتب التاريخ القديم والوسيط والحديث، تحكى وتقول، إنه لم يحدث من قبل أن وصل الأعداء والمحتلون والغزاة إلى قلب الصعيد الجوانى.

رحت استحضر فى ذهنى خريطة الصعيد الجوانى المرسومة بعناية فى خيالى. والمنقوشة بكل تضاريسها على جدران الذاكرة. كنت

أحاول تحديد الأماكن التى وصل إليها الأعداء فى قلب الصعيد، وحجم المقاومة التى كانوا يلاقونها فى كل شبر يصلون إليه.

قلت هذه المرة بصوت سمعه العسكرى:

ـ جاءوا وفى أياديهم ورقة بدلا من المدافع والرشاشات، ولهذا وصلوا إلى هنا.

تساءل بدهشة:

ـ ورقة؟

ـ يقولون عنها المعاهدة.

بدأ يحكى لى. قال إن الذى وصل إليه كان جزءًا من مجموعة سياحية، كانت معه ورقة فعلا، ولكنها كانت ورقة صغيرة فيها اسم امرأة وعنوان عملها. وقد استغربت أن يأتى إلىّ؛ فالمرأة تعمل فى السنترال العمومى فى البر الغربى حيث الفندق الذى ينزل فيه.

قال لى الإسرائيلى ـ يحكى العسكرى ـ بلغه مصرية شعبية كأنه واحد من أهل البلد، إنه يعرف أن المرأة تعمل فى السنترال القريب من الفندق الذى ينزل فيه، ولكنه يطلب منى الاتصال بها؛ لأنه لا يحب الذهاب بنفسه إليها فى السنترال. استغربت. إن نصف الذين يذهبون إلى السنترال من السواح، فكيف لا يحب الذهاب إليها هناك؟ رزمة الأموال التى بدت فى يديه جعلتنى أخاف من الموضوع كله. أبلغت حضرة الضابط فورًا. وفى اليوم التالى ألقوا القبض علىّ، وأسئلة مثل أبواب الجحيم، عن معرفتى بالمرأة التى لا أعرفها، صحيح أنها

طلعت ـ وهذا تم بالصدفة وحدها ـ من سكان عزبة ولاد مازن . وأنا أيضًا من سكانها ، وإن كنت أسكن فيها بسبب رخصها ولضيق ذات اليد . أما سكنها هى فيها فلا أعرف له سببا .

عندما عرضوها على ، وعرضونى عليها ، لم أعرفها ، وإن كانت هى قد قالت ومن الذى لا يعرف الصول عرابى؟ إنه يسكن فى البيت المقابل لبيتى . أراه فى اليوم الواحد أكثر من مرة . ولأن العزبة مشهورة بأن معظم سكانها من الغوازى اللاتى يرقصن فى الأفراح والليالى الملاح وبعض سهرات الفنادق ؛ لذلك واجهت صعوبات فى السكن هناك .

قالوا فى البداية صول بوليس وسط الغوازى . كيف؟! لا بد وأنه دسيسة عليهن . قلت لهم دسيسة تلبس الميرى؟ دسيسة تقول لمن لا يرى أنا دسيسة؟ بعد حكاية الإسرائيلى هذه ، استدعيت للتحقيق معى أكثر من مرة . عرفت من الأسئلة التى وجهوها لى ما لم يكن يخطر لى على بال . جاءت التحريات أن سيدة السنترال تورد للإسرائيلى بنات من غوازى العزبة .

تساءلت بدهشة :

ـ غازية ومن الصعيد؟!

قال لى المحقق إن غازية وغجرية من صعيد مصر الجوانى ترقص عندهم ، تصبح من الفاكهة التى تظهر فى غير أوانها . أكد ضابط المباحث للمحقق أن المرأة لها ملف فى الآداب . وهذا يكفى .

وإن كانت التحريات قد عادت لتقول إن هذه المرأة على علاقة بمن يبحثون عن الآثار فى البر الشرقى من الأهالى، وإنها كانت وسيطة من أجل توريد رأس ملكة لم تعرف من قبل، وإن الإسرائيلى هو الذى أحضر الأوراق والخرائط فى زيارة سابقة، ومن ثم بدأ البحث عن رأس الملكة بناء عليها.

واجهوها فى التحقيقات بتهمة ثالثة، إنها تتصنت على المكالمات التى تتم عبر السنترال أو بعضها وتفرغها وتسلمها لمن يحضرون من الإسرائيليين تحت شعار السياحة، وأنها تركز فى هذه التسجيلات على مكالمات معينة.

أنكرت المرأة كل ما وجه لها من الاتهامات، وأصرت على أن سبب البلاوى كلها هو سكن الصول عرابى فى البيت المواجه لبيتها. لقد زرعوه لها فى هذا المكان، كان إنكارها قويًا. يبقى السائح الإسرائيلى، كان من الصعب إلقاء القبض عليه أو استدعاؤه من أجل التحقيق معه، إلا بعد الرجوع إلى مصر، فالأمر دخل فى السياسة.

وحتى عرض الأمر على الكبار فى مصر، فى انتظار التعليمات كان السائح الإسرائيلى والمجموعة التى معه قد سافروا. سمعت ضابط المباحث يقول لزميله، لقد طار العصفور من القفص. استغربت من التشبيه. عصفور؟ هل هذا كلام؟ قل حدأة؟ قل غراب البين؟ أما العصافير فكيف يقال هذا؟!

لم يكن عمى عرابى يعرف لم يتم احتجازه، ولا إلى متى، كانت مشكلته مركبة ومعقدة، فهو واحد من الجهاز، ولا يعد محبوسا

بالمعنى الحرفى للكلمة. كانوا يقولون عنه إنه فى ضيافة زملاء له، وإنهم يحملونه على كفوف الراحة، وهو معزز مكرم.

ولكنه كان يقول لى: إن الحجز حجز والسجن سجن، حتى لو كان فى «الونتر بالاس». سألته: هل أكتب عن موضوعه؟ طلب ورقة وقلم من زميل له. المفروض إنه السجان. قلت له إن أكثر ما معى هى الأوراق والأقلام. طلب منى أن أكتب له عنوانى وتليفوناتى وكيفية الاتصال بى، وهو سيكتب لى فيما بعد. أما الآن فإن الحكاية قد تضره، وهو لا يدرى آخر الحكاية، ثم إن الذين يحققون معه فى الموضوع، يعتبرونه من أسرار الدولة العليا؛ لذا فإن الصمت أفضل من الكلام ومن الكتابة.

٧ـ السلاح

حا أسهر لحد ما أشوفى لى نهار

والمدفع أنا شايله

والعتبة دى نار

والمدفع أنا شايله

مش ممكن العدا

حايقرب، وأنا شايله

. . فى طريق العودة من الأقصر قررت تغيير المواصلة، سأعود بالسيارة، برغم البطء والأهوال. ثم هل هناك ما هو أبطأ من قطار الدرجة الثالثة؟! على الأقل فإن استخدام السيارة سيمكننى من رؤية القرى والناس مباشرة.

كان على أن أستقل تاكسيا بالنفر، فيه ركاب آخرون معى، من الأقصر حتى قنا، ومن قنا إلى سوهاج، ومن سوهاج إلى أسيوط، ثم من أسيوط - فى الوصلة الأخيرة - إلى البدارى، ولأنه لم تكن هناك مواصلة واحدة مباشرة من الأقصر إلى البدارى؛ كان لا بد من كل هذا التغيير.

قلت فرصة نادرة للاحتكاك بالناس والأشياء عن قرب، أن ألمسهم بكف يدى، أن أستنشق رائحتهم بأنفى، وأن أراهم وهم فى أقرب مكان ممكن من حبة العين.

لذلك بدأت رحلتى قبل بكة الشمس لكى أضمن الوصول قبل أن يأتى الليل. لم أحجز للمبيت عند فرج فى الاستراحة ولم أحدد له موعد عودتى. ومع هذا كان عندى يقين أنه لا بد وأن يوجد لى مكانًا للمبيت فيه حتى لو كانت الاستراحة الملحقة بالنادى فيها ألف واحد هذه الليلة.

بلاد مدججة بالسلاح حتى أسنانها . قوات الشرطة أهم ما يبدو منها هو السلاح . ترى البندقية والآلى قبل أن تطالعك ملامح الرجل ، والأكمنة على الطريق أكثر من أن تحصى ، ولا بد من الوقوف فى كل كمين . ينظرون إلى الركاب ، يكادون أن ينقبوا فى الوجوه ، يختارون عشوائيًا ، وبدون أى قاعدة ، من يطلبون منه النزول . وبعد النزول من السيارة ، يطلبون من البعض البقاء معهم دون إبداء الأسباب . ولا يجرؤ السائق أن يطلب أجرة المسافة التى ركبها معه الراكب المنحوس . سيئ الحظ الذى التقطه رجال الكمين وطلبوا منه البقاء معه .

عند مداخل القرى دبابات وسيارات مصفحة ، بعضها يقطع الطريق بالعرض . والناس معها سلاح لا تعلن عنه مثل رجال الشرطة . إن من لا يملك سلاحًا فى هذه البلاد لا يشعر بالأمان ، هذا ما سمعته فى كل مكان ذهبت إليه .

فى المسافة من قنا وحتى سوهاج كان الطريق مغلقًا ، توقفت حركة السير ، مع أننا لم نسمع صوت طلقات رصاص ولا يحزنون . نزلت من السيارة أستطلع الأمر . غربتى عن هذه البلاد تمنحنى شجاعة لا تتوفر لمن يعيشون هنا .

كان طابور السيارات الواقفة ، من كل شكل ولون ، طويلا . تمشيت . النظر لم يتمكن من رؤية آخر الطابور . سمعت من يقول : لو كان الخط بيننا ما حدث ما جرى لنا ، قلت لنفسى : الخط مرة أخرى . ما هى الحكاية بالضبط ؟ !

سألت عن السبب فى توقف السيارات . قيل لى :

ـ تجريدة جمع السلاح .

وعلى الرغم من أننى لم أفهم ما قيل لى بدقة ، فقد أخذت حقيبتى وأشيائى من السيارة التى يبدو أنها ستقضى النهار كله ، وربما الليل هنا فى هذا المكان . سرت حتى أصبحت على رأس طريق يؤدى إلى قرية ، يمكنك أن تراها إن نظرت ناحيتها .

فى أول الطريق دبابة ، وحولها وبداخلها عساكر وضباط ، يبحثون عن السلاح فى كل مكان ، ومع كل من يدخل إلى البلد ومن يخرج منه .

ما إن شاهدنى أحد المخبرين حتى أصر على اصطحابى إلى البيه المأمور ، مع أننى لم أقل له كلمة واحدة عن الصحافة التى ربما كان إخفاؤها أفضل من ذكرها فى مثل هذه الأحوال .

كان المأمور جديداً . جاء إلى هنا منذ أيام فقط . نقلوا المأمور السابق عليه لتراخيه فى القيام بعمله ، وبسبب علاقاته مع بعض سكان المنطقة وقرابته للبعض منهم . أتوا بالمأمور الجديد من بعيد ، من المنصورة ، المدينة التى تطل على نفس النيل . ولكنها قريبة من بحر الشمال ، ذلك البحر الذى بدون شاطئ آخر .

عندما أبلغوا المأمور ابن المنصورة ، والذى عمل فيها كل أيام عمره الوظيفى ، أنه منقول إلى الصعيد . تصور أنه مغضوب عليه ، ولكنهم قالوا له إن وجوده فى الصعيد عابر ؛ فترة قصيرة يعود بعدها إلى الوزارة مباشرة لكى يتولى منصباً مهما . كان العمل المطلوب منه ، يشكل جزءاً من مهمة كبيرة تتم على مستوى الصعيد كله .

قال الناس: تجريدة. قال آخرون إن الهدف ليس جمع السلاح، ولكن كسر الرءوس التى مازالت مرفوعة. كان المأمور مشغولا بما فعله مطاريد الجبل معه. لحظة دخوله المركز، لأول مرة، برز له شخص كان يختفى وراء أحد المبانى وصوره ثم جرى هاربا معاوداً الاختفاء.

عندما عرفوا أن المأمور الجديد من أبناء المنصورة أصلا. قال عنه الرجال: «حليوه ومسمسم». وعندما سأل المأمور عن الذى صوره. قالوا: المطاريد. وعندما سأل عن مكانهم. أشاروا إلى الناحية البعيدة: «فى الجبل».

عرف أنهم مجموعة صدرت ضدهم أحكام من المحاكم فاحتكموا إلى الجبل. يعيشون هناك فى تجاويف الجبل ومغاراته. وأى مأمور يحضر إلى المركز، يكون ضمن مهامه الأساسية ضبط وإحضار الصادر بحقهم أحكام ولم تنفذ.

بمجرد حضور المأمور وقبل أن يبدأ فى العمل، وأن يطلب الدفاتر القديمة ويقلب فيها، وقبل أن يبلغوه فى المركز بمثل هذه التعليمات، يبدأ المطاريد فى العمل ضده فوراً، يصورونه، يجمعون البيانات عنه وعن أسرته حتى سابع جد، وعن تاريخه الوظيفى منذ تخرجه حتى لحظة وصوله إليهم.

ثم يقدمون له تحية حضوره، يقولون له شرفت وأهلا وسهلا، ولكن على طريقتهم، أصبحت هذه التحية من الأمور التقليدية التى يقومون بها مع كل مأمور جديد، كأن يسرقوا بندقية شرطى، أو يخطفوا خفيرا من عزبة نائية، أو يغيروا على مبنى المركز، ويأخذوا

فى آخـر الغـارة واحـدًا من خـيل الحكومـة ، أو يجلسـوا فى فناء المركـز ويطلبوا شايًا وشيشة .

يفـعلون هذا مـن أجل أن تبـدأ المفـاوضـات بينهم وبين المأمـور الجديد ، حتى وإن كـانت من خـلال طرف ثالث . وهدف المفاوضات أن يترك كـل طرف الآخر فى حـال سبيله بدون أى مضايقات . وهناك من يوافق وهناك من يرفض .

تظل العـلاقة متوترة ومشـدودة بين المأمور والمطاريد حتى ينقل إلى مركز آخر . المشكلة أن المطاريد لـم يكونوا يشكلون هم المأمور الجديد فـقط ، ولو كـان الأمر هكذا لهـانت الأمور ، ولـكن هناك الكثـير من القضـايا التى يفرزهـا الواقع ، فـلا يبقـى عنده وقت من أجل مواجـهة المطاريد وحدهم .

وصلت إلى المأمور الذى رفض الكلام مـعى فى الموضـوع . أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى . وقال :

ـ للضرورة أحكام .

وعندمـا بدأت الحـديث عن الناس ومـا جـرى لـهم . استـدار إلى وسألنى إن كنت قد قرأت ما كتبه زملائى فى الصحف والمجلات من التمجيد للحملة وما جرى فيها . قلت له إننى غير مسئول عـما يكتبه غيرى .

كـان المأمـور وديعًا مـعى ، حتى بدأت الحـديث عن تجريدة جـمع السلاح ، التى عطلت الناس ، فـتغيرت نبرة صوته . كـان مزيجًا من القـاتل والضحية ، ولكى يخلص منى حولنى إلى ضابط المبـاحث .

ذهبت إليه. كان شخصًا عدوانيًا. تسبق كلماته حالة من الإحساس الحاد بالسلطة.

قبل أن يستمع إلى كلمة واحدة منى، رفع يده الناعمة الملساء فى المسافة التى بيننا، طالبًا منى السكوت، وبعد أن سكت. طلب منى أوراقى أولاً، ما يثبت شخصيتى، وسبب وجودى هنا، ومبرر اهتمامى بهذا الموضوع. مع أن الصعيد فيه كثير من الأمور الأخرى، وهم يقومون بالكثير من الأدوار المشرفة التى لا يعلنون عنها.

سألته:

- إذن هذه العملية ليست من الأمور المشرفة؟!

صاح فىَّ بوجه كالح:

- أنت لا تملك حق السؤال. أنا الذى أسأل.

ومن ساعتها وأنا لا أتحدث عنه مع أحد، إلا وأقول إنه الرائد: «أنا الذى أسأل» فيضحك من يسمعنى. أجلسنى ورفع سماعة التليفون. وقد تعجبت لأن التليفون كان يعمل. كل التليفونات لا تعمل إلا هنا. همس فى التليفون. لم أسمع كلمة واحدة مما قاله. وضع سماعة التليفون. قال لى إننى يمكننى سؤال الناس والكلام معهم والعوده إليه إن كانت هناك استفسارات.

كانت القرية، التى تقع على الطريق، اسمها الحراجية، وكانت قد غطت مساحتها خوذات جنود الأمن المركزى. نزلوا من سيارات مكتوب عليها «الاحتياطى المركزى» ومن قرأ هذه العبارة من شباب

القرية المتعلم سأل نفسه: احتياطى لمن؟ وما دام هذا هو الاحتياطى، فما هو حجم القوة الأساسية نفسها؟

كل جندى كان يحمل بيده اليمنى عصا، وفى اليد اليسرى درع. صور الناس أن الأعداء وصلوا إلى البلد، وتسللوا إلى الغيطان، دون أن يشعر بهم أحد، ولبدوا فى الزراعة، وهذه القوات جاءت من أجل محاربة الأعداء. تساءلوا عن الخسائر التى يمكن أن تحدث بسبب هذه الحرب، قالوا إن كل شىء يهون من أجل الدفاع عن الوطن.

اكتشفوا أنه لا أعداء هناك، وأنهم المقصودون بتلك الحملة.

- سلموا ما معكم من سلاح.

كان الصوت آتيا من ميكروفون معلق فوق سيارة.

جرى هذا بالتحديد بعد صلاة الفجر. فى ذلك الصباح الذى لم تصحُ القرية من النوم على مجيئه. كما يحدث فى جميع الأصباح والنهارات التى تأتى بعد الليالى الطويلة. لم تستيقظ القرية من النوم ولم يخرج الرجال إلى العمل.

ولكن القرية التى كانت تنام فى حضن الليل، فتحت أعينها مفزوعة، ليس من كابوس مزعج كانت تنام تحت وطأته، ولكن من كابوس واقعى كان يجرى فى حواريها وفى شارعها الرئيسى.

فى تلك الليلة ما أن علا صوت المؤذن من على المئذنة الوحيدة فى القرية يقول: الصلاة خير من النوم، وقبل أن يكرر هذا النداء مرة أخرى، لكى يستيقظ النائمون من أجل الصلاة، كانت كلاب الليل

قد بدأت فى النباح، النبحة الأولى كانت من كلب وحيد قبلى البلد، وقد تبعتها نبحات أخرى، حتى أصبحت الهبهبة جماعية، وبصورة لا تحدث هكذا إلا عندما يجيء غريب إلى البلد، ولكنى أى غريب يحضر إلى البلد فى هذا الوقت بالذات؟!

بدلا من أن يتجه الرجال إلى المسجد، اتجهوا إلى قبلى البلد لمعرفة الغرباء القادمين إلى البلد فى هذا الوقت الغريب، وقبل الوصول إلى مكان الغرباء رأوا آثار وجودهم فى كل مكان وصلوا إليه.

كانت قوات الاحتياطى المركزى قد تحولت إلى كردون يبدأ من شط النيل، ويصل إلى السكة الحديد، وينتشر فى حوارى القرية. وبرغم ظلام الليل، وبرغم أن القادمين من الغرباء، ومن المفروض أنهم لا يعرفون مسالك البلد، إلا أنه يبدو أن مع كل منهم خريطة للقرية مرسومة فى أذهانهم؛ لأن الأيادى لم يكن فيها سوى السلاح والدروع. أما الأوراق فلم تكن معهم، حتى وإن كانت معهم، من كان سيتمكن من قراءتها فى هذا الوقت، وظلام الليل يفرض نفسه فى كل مكان؟

العساكر كانوا يقفون متجاورين، وكانوا يحملون السلاح فى حالة استعداد، وكانت القيادات من الضباط يخاطبون بعضهم البعض باللاسلكى.

الرجال القليلون الذين ظهروا فى شوارع القرية - فى ذلك الوقت - وأغلبهم من الشيوخ والعجائز والمسنين ومن الصبية - كانوا يفركون أعينهم من الدهشة. كان البعض يخيل إليه أنه ما يزال نائمًا، وأنه

لم يصحح من النوم بعد، وأن ما يشاهده جزءاً من كابوس ثقيل، فى هذا الوقت الذى يراوح بين الحقيقة والخيال.

وبدأت عملية الدق على أبواب البيوت.

كان حوالى عشرين عسكريًا يدقون باب بيت مازال آمنًا، لا تخاف جدرانه ونوافذه وبابه سوى من لصوص الليل. أبناء المنسر. كان أهالى البيت مايزالون نائمين وكانت أول من استيقظ من سكانه امرأة، وهى التى فتحت الباب.

- حرمة

صرخت المرأة عندما شاهدت العساكر يدخلون البيت الذى كانت تخرج منه رائحة النوم. بهت العسكرى عندما صرخت المرأة، ومع هذا فإن الأوامر هى الأوامر. كانوا يفتشون كل البيوت بحثًا عن السلاح الذى فيها، أو المفترض أنه فيها.

كان السؤال الأساسى الذى وجهوه لصاحب البيت. عندك سلاح؟ بعد السؤال كان لابد وأن تمر فترة من الصمت على صاحب البيت قبل أن يجيب. إن قال لا، واتضح بعد ذلك أن عنده سلاحًا، يكون قد كذب عليهم، وأخفى ممنوعات، وتصبح العقوبة مضاعفة. وإن قال نعم. فالاعتراف سيد الأدلة، ولا بد وأن يدلهم على مكانه- مكان السلاح طبعًا- بنفسه.

ولأنه لا أحد يحمل رخصة بالسلاح الذى عنده، يتحول الأمر إلى قضية، وسين وجيم، ومصادرة السلاح إن وجد، وإلقاء القبض على

صاحبه، ومحاكم لا يعرف الإنسان كيف يخرج منها، قد ينتهي العمر نفسه وهو يخرج من محكمة لكي يدخل محكمة أخرى.

وهل هناك بيت أو حقل لا سلاح فيه؟ الجميع يدافع عن نفسه. والسلاح هو الوسيلة الوحيدة لذلك. هذا سلو الصعيد. وقطعة السلاح في البيت هي أمانة. وفي الحقل فإن مجرد وجودها يجعل صاحبها من المطاريد.

عندما جاءت التجريدة هذه المرة، لم يمروا على العمدة أو شيخ البلد، مع أن العمدة ورجاله هم الذين يعرفون حتى دبة النملة، والبحث عن أي شيء بعيدًا عنه. يعتبر تعديا عليه وخرقًا لاختصاصه. ولكن العمدة عندما يعرف أن الذي فعل هذا هم حضرات الضباط، لن يتكلم. هل العين تعلو على الحاجب؟ وهل طلعت المياه في العالي؟ والعمدة ورجاله لن يحولوا الأمر إلى مشكلة.

بدأت عمليات البحث عن السلاح والمؤذن فوق المئذنة يقول: الصلاة خير من النوم، يحاول أن يوقظ الناس لصلاة الفجر. واستمرت عمليات التفتيش حتى ظهر اليوم، حين صعد نفس المؤذن إلى مئذنة نفس الجامع، ولكن النهار كان قد أصبح واضحًا، والشمس تفرش البلدا بنورها هذه المرة. نادى المؤذن: الله أكبر.. الله أكبر.

أمر الضابط الكبير باقي الضباط الصغار، بوقف عمليات البحث والتفتيش عن السلاح؛ أولاً لأخذ راحة من عناء العمل، ثانيًا: حتى

يفكر أهالى البلد فى الأمر ويتعاونوا معهم. وكل من له عقل فى رأسه يعرف خلاصه. وذلك بدلاً من التفكير فى اللجوء إلى أى إجراءات أخرى.

ذهب المخبرون إلى الجامع من أجل الصلاة. لم يصدق الناس ذلك. قالوا إنهم ذهبوا من أجل التجسس على الناس فى الجامع. وليس من أجل الصلاة. ولذلك كانت عمليات الوضوء والصلاة تتم فى صمت خوفًا من وجود المخبرين.

كان العمدة قد وصل من الصباح الباكر، جلس مع الضباط ورحب بهم. وقال - كذبًا - إن البلد نورت بوجودهم. تكلم مع الضباط. عرف منهم الأمر على بلاطة. ودون لف أو دوران. لابد من العودة بكميات من الأسلحة من أنواع معينة، لأن هناك إخباريات تقول إن هذه الأسلحة موجودة فى البلد.

بعد أن قرر العمدة أن الكذب خيبة. قال إن بعض الأهالى عندهم سلاح فعلا. لزوم الدفاع عن النفس وحماية المواشى والزراعات والبيوت والأعراض. ذلك أن القرية مسالمة، والناس فى حالها، ولكن الأمر لا يسلم من وجود قطعة سلاح أحيانًا.

أفهمه أحد الضباط الذى كان يرتدى الملابس المدنية، أن هذا الكلام ليس فى صالحه؛ لأنه إن كان الناس يدافعون عن أنفسهم بهذا السلاح، فماذا يفعل العمدة ورجاله إذن؟!

قال العمدة، إن المشكلة فيمن لا يملكون سلاح أصلا، لا للدفاع عن النفس، ولا من أجل أى هدف آخر، ما العمل فى هذه الحكاية؟

قال الضابط :

- لا بد من تسليم السلاح المطلوب .

مرة أخرى، فهم العمدة المسألة على بلاطة . من لديه سلاح يسلمه أو جزءاً منه، ومن ليس لديه سلاح عليه أن يتصرف . وهكذا اتضح الموقف، لا بد من وجود مهلة من الوقت حتى يتم جمع السلاح المطلوب . كانت مع الضابط الكبير كشوفات فيها أسماء الناس والأسلحة التى عندهم، حسب تبليغات مصادر الأمن السرية .

ظلت القوات مرشوشة فى الشوارع طول الوقت الذى كانت تجرى فيه المفاوضات بين العمدة والضباط . وبعد المفاوضات بدأت عملية تسليم الأسلحة . كانوا يحددون لكل فلاح الأسلحة المطلوبة منه حتى يحضرها، وكانت تتم عمليات استبدال أنواع مستحيلة بأنواع ممكنة ومتاحة إن تعذر عليه تسليم ما يحددونه له .

كانت الأسلحة مكومة فى الوسعاية الموجودة أمام المسجد . نظر أحد الشباب إلى كوم السلاح الذى كان يرتفع كلما مر الوقت . قال متى ستصبح الأسلحة جبلا حتى يصبح عندنا ثلاثة جبال : الجبل الشرقى، والجبل الغربى، وجبل الأسلحة الذى بينهما . قال شاب آخر إنه معرض للغنائم، وإن كانت هذه الغنائم لم يحصل عليها جيشنا من جيش العدو الإسرائيلى فى معركة .

وهكذا انقلب الحال . الذى عنده سلاح لم تكن عنده مشكلة، يسلم المطلوب منه . ولكن مشكلة المشاكل بالنسبة للعمدة وشيخ البلد وشيخ الغفر والغفر، كانت عند من ليس لديه سلاح . ما العمل معه؟

لا بد من شراء سلاح وبأسرع ما يمكن، من ليس لديه سلاح كان يذهب إلى العمدة، يسأله عن القطعة المطلوبة منه، حتى يشتريها من الطفقشي، الذى راجت تجارته فى هذا اليوم، بصورة لم تحدث له من قبل.

رفع الطفقشي أسعاره، وبدأ يبيع الأسلحة الراكدة عنده، التى لا يوجد عليها إقبال. كان يحضر السلاح من مخابئة علنًا - لأول وآخر مرة فى البلد - وفعل مثلما يفعل البقال - المقدس ميخائيل - كتب لافتة تقول: الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الرب مضمون.

من ليس معه فلوس. والناس كلها لا توجد معها فلوس. هل هناك من يضع فلوسًا فى بيته؟ القرش يعرف الطريق الذى سيمشى فيه قبل أن يأتى. قال مثلما يقول المقدس ميخائيل إن الذى ليس معه فلوس يمكنه أن يرهن مصاغ زوجته لحين ميسرة. وهى الميسرة التى لا تأتى أبدًا.

فى فجر اليوم. جاءت تجريدة لجمع السلاح من الأهالى. وعند ظهر اليوم، وبعد مساومات وصفقات أصبح اليوم هو يوم تجارة السلاح الكبير فى تاريخ القرية. تهت فى الوصول إلى الحقيقة. لابد وأن هؤلاء الناس يعانون من غياب الإحساس بالأمن. لذلك اشتروا السلاح. وقبل جمع السلاح لابد من توفير الإحساس بالأمان لهم حتى يمكن الخروج من هذه الدائرة الجهنمية.

خرجت من القرية وكل ما حولى ثقيل حتى الهواء الراكد، الذى كان فى ثقل الرصاص. كان كل شىء يشير إلى أسفل. قررت - هذه

المرة ـ الذهاب إلى المسئولين . لا بد وأن يعرفوا ما يجرى ، وأسمع ردهم عليه .

سعدت عندما علمت أن المحافظ من أبناء قنا . طلبت موعداً معه . فحدده لى فى صباح اليوم التالى . قلت إن المقدمات جيدة . لعل النتائج تكون فى مستوى المقدمات .

قابلنى فى الموعد بالدقيقة والثانية ، محافظ فى مرحلة الشباب . لا تسبق اسمه كلمة سيادة اللواء . ولكن حرف الدال وراءه نقطة . دكتور هو وتخصصه أوجاع المجتمع . وصل تفاؤلى ـ لأول مرة منذ أن بدأت هذه الرحلة ـ إلى أقصى مدى له .

قبل أن يسمعنى تحدث عن نفسه . قال لى ـ وهو يشير إلى نفسه ـ إنه جاء إلى هذا المكان من أرضية العمل الجماهيرى . العمل وسط الناس . وإنه لو لم تعجبه الأحوال ، سيترك مكانه فوراً ، وينزل إلى الشارع ، فهو أولا وأخيراً أحد أبناء الشارع القناوى . إنه منذ التنظيم الطليعى ـ طليعة الاشتراكيين ـ وحتى هذه اللحظة يعمل من أجل الجماهير . نزلت كلمة طليعة الاشتراكيين على قلبى برداً وسلاماً .

قلت للمحافظ الذى كان جميع من فى مكتبه ينادونه بعبارات التعظيم ، مثل يا معالى الباشا . كانت كلمة الوزير تسبق كل العبارات قلت له :

ـ إننى لا أطلب منه قبل الكلام سوى منديل الأمان . ضحك عاليا وعاتبنى . قال لى إنه يعتبر نفسه مثقفاً . قام من مقعده ، حيث كان يجلس وسط علمين ، علم مصر وعلم المحافظة . أخذنى إلى الصالون

الملحق بمكتبه، عاد لأنه تذكر أمرًا مهمًا. أمسك بتليفون أحمر قال فيه إنه جالس فى الصالون بجوار التليفون رقم ثلاثة.

طوال اللقاء كان يتابع بلهفة أخبار وفد من الشباب ضيوف على الهانم، سيدة مصر الأولى، حرم الرئيس المؤمن، من المفروض أنهم فى ضيافته، ولكن لأن المحافظة لا يوجد فيها فندق خمس نجوم واحد، فهم ينزلون فى الأقصر، ويحضرون كل يوم من الأقصر إلى قنا، ويعودون إلى الأقصر آخر النهار.

سألته عن جنسية هذا الوفد الذى ينزل ضيفًا على السيدة الأولى. لم يرد على سؤالى. خيل إلى أنه لم يسمعنى. كررت السؤال أكثر من مرة. ولم يرد. أدركت أنه لا يريد الرد على. قلت لنفسى. لم اللهفة الشديدة على معرفة كل شىء مرة واحدة؟ ياخبر بفلوس، بعد أقل من ثانية يصبح ببلاش.

كان المحافظ هو الذى طلب هذه المرة. كان يتكلم من خلال التليفون عن ضرورة تشديد الحراسات على الوفد. حراسات من قبله وأخرى من بعده، يسير على شكل موكب.

وحراسات من شرقى الطريق ومن غربيه. قال إنه ليس فى حاجة لأن يذكرهم إنه أول وفد إسرائيلى شبابى تستضيفه الهانم، وترسله إلى الصعيد حتى يرى عظمة الأجداد.

وفد إسرائيلى شبابى فى ضيافة الهانم؟! تعجز كل الكلمات عن دهشتى. كاد قلبى أن يتوقف. قلت له بصوت عال: وفد شبابى إسرائيلى يا سيادة المحافظ؟!

كان يبلع ريقه بصعوبة. مد يده يوسع من ياقة قميصه حول رقبته، فتح القميص، وأنزل ربطة العنق قليلاً. وبرغم وجود أكثر من جهاز تكييف فى الغرفة هوى بيديه حول وجهه.

قلت لنفسى إن إحساس المحافظ بالخجل مما يقوم به هو أفضل ما قابلته اليوم. من طليعة الاشتراكيين إلى حماية وفد إسرائيلى، يا قلبى لا تحزن. عرضت عليه أن أمشى وأعود له فى وقت آخر. خشيت ألا يركز معى مادام باله مشغولاً بحماية هذا الوفد.

رفض ذلك. أخذنى إلى الصالون الآخر الملحق بمكتبه، قال لى تعال نتكلم كأصدقاء. بعيداً عن الرسميات، التى يمكن أن تذكرنا معًا - هو وأنا - بفكرة السلطة. قال لى قل كل ما عندك مرة واحدة. وأنا أرد عليك مرة واحدة. قبل أن أتكلم صفق بيديه. برغم وجود أكثر من جرس. طلب من الساعى عندما حضر أن يأتى لنا بشاى وقهوة ودورق مياه باردة. وأن يولع اللمبة الحمراء على بابه، حتى لا يزعجنا أحد من أصحاب الطلبات فهو مع صديق عمره الآن. قال ذلك برغم أننى لم أره قبل هذه اللحظة.

قال لى قدم ما لديك. وهو يرد على. حتى لا يتوه فى التفاصيل الصغيرة. تفاءلت، لست أدرى للمرة الكم. فأنا أيضًا لا أحب الغرق فى التفاصيل الصغيرة. التى تحجب عنا الرؤية الكلية للأمور.

قلت له:

- هل تعرف أنهم أخذوا بعض النساء كرهائن.

بدت الدهشة على وجهه. ولكنه لم يرد. طلب منى بعلامات من

يديه الاستمرار فى قول ما عندى. وإن كان قد خرج على القاعدة التى وضعها بنفسه قبل أن تجف كلماتها فوق شفتيه. قال لى - مقاطعًا - إن من يفعل هذا لا بد وأن يكون من بحرى، نحن فى الصعيد مجتمع تقاليد أساسًا.

قلت له: هل تعرف أنهم كانوا يفكون الشال الذى يلفه الرجل على رأسه. وخلع الشال - كما عرفت - يشكل أكبر إهانة للرجولة. ويربطون الرجال بنفس الشيلان، كل سبعة رجال فى حزمة واحدة، ويسوقونهم إلى الوسعاية.

قال لى: ولماذا لم يقدم الناس شكاوى بهذه التجاوزات؟

قلت له: ومن يشكو الحكومة للحكومة؟ أكملت قائلا له: هل تعرف أن هذه القرية التى جرى فيها كل هذا تعد من القرى الآمنة فى الصعيد كله؟ وأنها لم تقع فيها منذ سنوات مضت سوى حادثة ثأر واحدة بين عائلتين، وهذا معدل يصل إلى حدود المثال، وبدلا من تكريم القرية تشن عليها تجريدة.

قال لى: إن المشكلة تكمن فى كلمة واحدة هى السبب فى كل هذا. وهى التقارير. قال لى إنه يعرف منذ أن طلبت الموعد، أننى سأتكلم حول موضوع السلاح وجمعه، فهو لا يلعب فى موقعه هذا، ويأخذ عمله بأكبر قدر من الجدية، ويعرف حتى دبة النملة فى المحافظة كلها.

قال إن له تاريخًا شخصيًا مع موضوع جمع السلاح منذ أن كان عضوًا فى مجلس الشعب، وعندما كان رئيسًا للمجموعة البرلمانية

للمحافظة فى البرلمان. كان يعاون أجهزة الأمن فى جمع السلاح. كان يتفاوض من أرضية كونه رجل عمل سياسى وعمل شعبى مع العائلات التى تملك أسلحة غير مرخصة، حتى يكون هناك تمهيد لأن يسلموا السلاح بكرامتهم، وفى نفس الوقت تحقق الحملة الأمنية أهدافها بدون أى مساس بالناس.

قال لى إن الأمن معذور، فهو عندما يجد المساعدة من أبناء البلد يعرف حدوده، وعندما لا يجد هذه المساعدة يتعامل مع الناس مباشرة، وهنا تحدث التجاوزات. سألته عن الحملة الأخيرة. قال لى إن هناك تقارير لا يمكن السكوت عليها. مادامت قد وصلت، لا بد من وجود تصرف، وإلا يسجل الأمر فى بند الإهمال الجسيم.

قال لى المحافظ إنه من أبناء الصعيد، وإنه دارس لعلم الاجتماع. ثم قال لى: إن السؤال الخطير هو: هل السلاح الذى تم الاستيلاء عليه. كان موجوداً؟ أم أن الأهالى اشتروه لكى يقدموه لرجال الأمن؟ قلت له معلوماتى وأخبارى تقول إنهم اشتروه، لكى يرحموا أنفسهم من البحث عنه، وما يمكن أن تجره عملية البحث.

صفق بيديه قال بصوت عال:

- هذه قضية خطيرة جداً.

أكمل:

- لن أسكت أبداً.

رفع سماعة تليفون كانت بجواره. قال لسكرتيره:

ـ اطلب لى مدير الأمن فوراً.

نظر إلىَّ. أفهمنى أنه سيعقد اجتماعًا مع مدير الأمن بحضورى. قال لى بعد أن هدأ:

ـ لو كان كلامك صحيحًا. إذن تكون الحملة قد روجت لأسواق السلاح.

سألته عن مصادر سوق السلاح. قال لى إنه التهريب، فالبنادق الآلية ـ مثلاً ـ ممنوع التجارة فيها. وكذلك المدافع بجميع أنواعها. قلت له: إن العلاج من المنبع أفضل من تركه حتى يصل إلى المصب. أمن على كلامى. . قائلا: إن إغلاق الحنفية التى يأتى منها السلاح أفضل. قال لى إن فى صعيد مصر تعبير أمنى يقول إن السلاح كناب الثعبان، أو كالسم. طالما أن الناب موجود يستطيع الثعبان أن ينفث سمومه ويسبب الأخطار.

وصل مدير الأمن. قلت لنفسى جاء الرجل فى الوقت الذى وصل الحديث فيه إلى التعبير الأمنى عن المسألة. قال المحافظ إن النقد ليس عيبًا، مادام نقداً بناء، وليس هدامًا. وما دام يقال شفهيا وليس مكتوبا. ومادام يقال فى المكاتب المغلقة، بعيداً عن الإعلام، لأن النشر يصبح كمحاولة نشر الغسيل القذر على الآخرين. وقد يستغله أعداء مصر، وما أكثرهم.

أكدت للمحافظ أن هذه التجاوزات قد حدثت. قال المحافظ إن هذه التجاوزات لو كانت قد حدثت فهو لن يقبل هذا، كما أنه لن يقبله مدير الأمن. ولكن هناك إيضاح ـ تحدث المحافظ ـ إنه ربما حدثت

بعض التجاوزات من ضابط صغير . ارتكبها لأنه يريد الوصول إلى الهدف الذى يريده منه رئيس الجهاز، والمهم هنا بل والخطير . هل التجاوزات موضوعة فى الخطة أم لا؟ إن كانت فى الخطة يصبح الأمر خطيراً. ولكن إن لم تكن فى الخطة، فإن الأمر يكون مبعثه تهور الضابط الصغير . وهو مأمور لخدمة الصالح العام . إن هذا معناه أن الهدف الكبير قد تحقق . ولكن حدثت بعض الخسائر البسيطة . لو أنه لم يتم الوصول إلى الهدف ـ فى هذه الحالة ـ نقول إن التهور لا داعى له . ويصبح غير مبرر، خاصة وإنه لم يرد فى الخطة ولا توجد تعليمات به .

قال المحافظ :

ـ إن تحقيق الهدف يشفع لبعض التجاوزات .

كان المحافظ منفعلا من كثرة الكلام ـ وقد توقف عن الكلام من تعبه ـ قال إنه يعطى الكلمة لمدير الأمن . الذى قال ـ بصوت منطفئ ـ إن هناك احتمالاً، أن يكون ضابط صغير قد انطلق فى مأموريته بعيداً عن أعين رؤسائه وتهور، ذلك أن الحملة الأخيرة كانت فيها قيادات كبيرة . قال إنه لا يذكر أسماء القرى لكثرتها ولأن أسماءها صعبة، وهو ليس من أبناء هذه المنطقة .

حكى مدير الأمن أن الحملة كانت مكونة من مئات الجنود، وعشرات من السادة الضباط من مختلف الرتب، وكانت هناك قيادات من القاهرة برئاسة مساعد الوزير، وقيادات محلية برئاسته هو شخصيًا . والحملة استمرت أسبوعًا، وشملت كل القرى، وكان

الهدف منها مجرد جمع السلاح، وإن بعض الأهالى كانوا يقدمون السلاح تطوعًا من تلقاء أنفسهم، حتى دون أن يطلب منهم.

حاولت أن أتكلم عن شكاوى الناس. قال لى إن هدف هذه الشكاوى هو الإثارة والبلبلة، وأنها من ناس حاقدين موتورين. ثم قال لى إن البلد فيها الآن سيادة القانون. وهناك نيابة ويمكن لأى شخص أن يذهب إلى النيابة، ولكن أحدًا لم يذهب إلى النيابة. استراح مدير الأمن فى جلسته، وقال لى إننى أحمل شكاوى من بعض الناس، وهو معه برقيات شكر من أهالى نفس القرية.

كان سعيدًا بهذا الاكتشاف. قال هذا هو مربط الفرس. هناك من يشكو وهناك من يشكر، وهذا الاختلاف يؤكد أن المسألة فيها قولان. قال مدير الأمن إن هناك خلفيات للموضوع. فقد تعددت حوادث السطو المسلح على الطريق الزراعى الرئيسى، قنا - الأقصر. مما دفعهم إلى التعجيل بهذه الحملة. والقيام بها قبل موعدها الذى كان محددًا من قبل.

قبل الحملة قاموا بعمل التحريات التى حددت الأشخاص مرتكبى هذه الحوادث. فى هذه الحملة توصلوا إلى عصابة السطو المسلح وهم معروضون على النيابة. كذلك ألقى القبض على عدد من الهاربين المحكوم عليهم فى جنايات وجنح. ومتخلفين عن التجنيد. لقد نجحت الحملة. وجمعت أسلحة من أطراف خصومات ثأرية ملتهبة، لأن طرفى الخصومة طالما أن بيدهم الأسلحة لا يفكرون فى الصلح. وجمع السلاح يجبرهم على الصلح.

قال لى مدير الأمن، إننى قادم من الشمال، ولذلك من الصعب على تصور صعوبة الأمور هنا. والمحافظ قال لى إنه يثق فى نزاهة وصدق مدير الأمن، وهو متأكد إن كانت هناك أى تجاوزات، فإن مدير الأمن سيعاقب من أقدم عليها. فهو لا يرضى عن أى تجاوز. فهو مصرى صميم، ليس شرقيًا وليس غربيًا، ولكن مصرى.

تركت الموضوع معلقًا بنزاهة السيد مدير الأمن الذى يثق فيه السيد الوزير المحافظ. وخجلت من فكرة العودة إلى القرية؛ لأنه لم يكن معى ما يمكن أن أقوله للناس هناك(*).

(*) ومن محاسن الصعيد الجليلة كثرة الأمن لا سيما فى الوجه القبلى منه. يسير الإنسان فيه ليلاً ومعه ما يشاء فلا يجد من يعترضه. وقد ركبت مرة وأمسى الليل علىَّ وأنا وحدى. فربطت فى حجر ونمت.

ابن ذولاق

٨ـ العـــرض

صـبـاح الخـيـر، يا قـشطة طرية

يا قـمـر الليل، يا شـمس الصـبـحـيـة

صـبـاح الخـيـر، مـا قـالهـاش أبوكى

جـماعة م الصعيد، جـايين يخطبوكى

. . توقف الزمان، حبست البدارى أنفاسها، حتى الكلاب التى كانت تنبح طول الليل، وتحرك ذيولها مع النباح، سكنت ذيولها ووقف شعرها، وبقى جزء من النبحة معلقا فى أفواهها، وإن كان الإنسان والحيوان والطير قد سكنوا وسكتوا، ولم يتفاهموا سوى بالهمس، فإن الجماد قد تحرك، اهتزت البيوت، تأرجحت الجدران، مثلما تفعل الرياح فى أشجار السرو العالية، وتخلخلت أسقف البيوت الواطئة على من يجلسون فيها، أو ينامون بين جدرانها وتحت أسقفها.

دق جرس الكنيسة الوحيدة فى البلد عاليا، مع أنه لم تكن هناك مناسبة لكى يدق، لا هناك ميت، وليس الوقت أوان قداس، وعندما تعجب الناس من دقة الجرس، قيل لهم إن غرابًا أسود اللون، حط فوق الجرس فى هذا الوقت بالذات، ثم تحرك فضرب الجرس ضربته، التى أثارت الفزع والاضطراب والرهبة فى نفوس الجميع.

صدقت الناس قصة غراب البين، لأن عامل الكنيسة الذى يمسك الحبل ويحركه حتى يضرب، لم يكن موجودا فى ذلك الوقت، لا فى الكنيسة، ولا خارجها، ولم يحدث أن ضرب الجرس فى هذا الوقت الغريب، قالوا إن الجرس يريد أن يؤكد للناس أنه أيضا يشاهد العرض الذى ستقدمه المرأة التى قتلت رجلين فى وقت واحد.

ضربات الجرس جعلت حيطان البيوت القديمة تهتز، اهتزاز ما قبل الانهيار، يقولون إن المياه فى النهر، تلك المياه الصاعدة إلى الشمال، توقفت لحظة ضرب الجرس، وإن الهواء الطرى، النازل من الشمال نحو الجنوب، قد أصابته حالة من التوقف.

حتى النجوم فى سماء الله العالية التفت حول بعضها، واحتمت بهذا الالتفاف الذى شكل شعر امرأة تستغيث، وقد نكشته الريح فى كل اتجاه، إن النجوم التى رآها الناس فى عز الظهر - بدلا من أن يهددوا الآخرين بتلك الرؤيا - اكتشفوا أن النجوم كانت تحمى نفسها بهذا الشكل الذى اتخذته.

أفندى كان يقف وسط الناس، الذين جاءوا لمشاهدة العرض، وإن كان هذا الأفندى رغم وقوفه وسط الناس، لم يكن معنيا بمشاهدة ما يجرى، قال لى إنه يبحث فى تاريخ البدارى، ليتأكد إن كان هذا الذى جرى قد وقع من قبل أم لا.. وإنه لم يتوصل لأى حقيقة، من وراء بحثه هذا.

سألته عن أهمية بحثه، وأهمية ما قد يتوصل إليه، هذا إن توصل إلى أى شىء بالمرة، غضب من سؤالى، قال إن هذا الذى يجرى لو كان يحدث للمرة الأولى فهو من علامات الساعة، وإن كان قد وقع من قبل، فالمطلوب معرفة رد الفعل حتى نطمئن إلى عدم قيام الساعة.

قلت له: وهل هو حريص على الحياة إلى هذا الحد؟ على الأقل لو قامت الساعة فإنها تضمن نهاية للجميع معا، إنها توفر نهاية فيها قدر

من الونس - نهاية جديدة - أعادته كلماتى إلى حالة من الهدوء والتأمل، قال لى وكأنه يخاطب نفسه:

- على رأيك.

لم أشاهدها وهى تمثل كيف قتلت الاثنين معا، الزوج والرجل الآخر، كانت ترفض سماع كلمة العشيق، لكنها قالت عنه - العشيق وليس الزوج - الرجل الذى تدوس قدماه على الأرض وترفع رأسه السماء، ويصل الخشب الذى يتكون منه جسده - وليس جسمه - ما بين السماء والأرض.

رأيتها مثل غيرى، من بعيد لبعيد، فتاة صغيرة الحجم، دقيقة الأطراف، لا أعرف لم تصورت أنها عملاقة، امرأة خارجة من دنيا الأساطير إلى أرض الواقع، يثير منظرها رهبة فى النفس ورجفة فى الفؤاد، وارتعاشة فى الأطراف.

كان يطل من وجهها - على البعد - حسن وجمال، رغم التعب الذى هدها والملابس التى ترتديها، والتى يبدو أنها كانت نائمة بها ليلة الأمس، منعوا الناس من الاقتراب من المكان، وفشلت كل محاولاتى فى الدخول إلى الدائرة التى منعوا الناس من الوصول إليها.

حاولت الاقتراب من جديد، هذه هى اللحظة التى جئت بسببها من آخر الدنيا. منعونى، لم تشفع لى أوراقى، ولم ترق قلوبهم، ولم تلن ملامحهم، الكاميرا التى كنت أحملها معى، مع أننى كنت

مستعدا لتصويرهم واحدا . . واحدا، حتى لو كانت صور أمريكانى، أى صور مزيفة.

عادوا يبعدون الناس عن المكان كله، كان مع المرأة الرقيقة حراس وعسكر، وعدد من الضباط، كما يقولون عادة، جاءت فى حراسة مشددة، ثم جاء وكيل نيابة البندر لكى يتم التمثيل بحضوره، قال لى واحد من الواقفين إن عملية تمثيل الجريمة من جديد ركن أساسى، ولا بد منه، لكى تنتهى التحقيقات، وتكون جميع الأمور قانونية.

ما أكثر الواقفين حولى، ولكن موضوع كلامهم الأساسى كان يدور حول ما يجرى بالداخل، كانوا يقولون تعليقات كثيرة عن الحادث، وإن كانت لم تضف أى جديد لى. وبدأت - أثناء وقوفى - أجمع حبات الحكاية من أولها، خاصة حكاية المرأة، فهى التى تبقت من أبطال القصة، البعض يسميها البندرية، والآخرون يقولون البحراوية، أو المصراوية. والشباب - خاصة الذين تعلموا - يقولون القاهرية، اكتشفت أن كل التسميات تحاول أن تبعد عنها صفة أنها صعيدية، قررت أن أجمع عقود الحكاية، ثم أذهب لمقابلة أطرافها، ثم أكتب بعد ذلك.

نظرت إلى المكان الذى أدخلوا فيه، ليس ڤيللا، ولكنه قصر، قصر قديم ومهجور. الشىء الوحيد الذى خيل إلى أنه جديد فيه، كان المرايا، زجاج ملون وسط جدران قديمة، تبدو آثار نيران حريق متفرقة فى جدران القصر العالية، يذكرك منظره بمبانى وقصور زمان التى لا تسكنها سوى أطلال الذكريات القديمة.

كانت الشمس الربيعية تصب شعاعها على قطع الزجاج الملون بألوان قديمة، لا وجود لها الآن، رغم أن الزجاج يبدو من بعيد، كما لو أنه تم تركيبه منذ ساعات، وكان البريق المتوهج الناتج عن لقاء الزجاج بالشمس، يحكى من خلال ألف لون، ألوان قوس قزح التى لم نكن نراها فى السماء إلا بعد الأمطار فى شتاء قرى الدلتا.

أحسست أن الزجاج المعشق المغسول بضياء الشمس القوى يحكى كمصباح أخير حكاية القصر وساكنيه ويوشك أن يقلب صفحة مضت، ويفتح صفحة لم تبدأ بعد.

كان اسمها مريم، وكان القتيل الأول زوجها: شمشون جرجس عبدالمسيح. أما القتيل الثانى عشيقها، فقد كان اسمه أحمد معاطى، والعائلة: أبو الدهب، وهى من أكبر عائلات الناحية كلها.

يقولون لك إن اسم العائلة ورد فى كتب التاريخ، وإن كانت الأسرة قد هجت، سافرت. أما عن سبب سفر عائلة عبدالمسيح من البندر فهم يقولون إنه اضطهاد من المحتسب، طفشت العائلة ليلا، صحى البندر ولم يجد سوى شمشون، أما الباقون فقد استقروا فى شبرا بمصر.

بقى شمشون ـ ينطق البعض اسمه ـ سمسون، يقلب الشين سينًا، بقى شمشون فى البندر، يرعى مصالح العائلة، أقول لهم إن المحتسب مضت عليه قرون فكيف بقى شمشون الذى نعاصره؟ يقولون إننى لا بد وأن أفوّت ولا أمسك لهم على الواحدة، ربما كان شمشون الذى بقى هو جد جدود شمشون الذى قتلته مريم مؤخرا.

عندما فكر شمشون فى الزواج، أخذ القطار وسافر إلى شبرا، وعاد وهى معه، بندرية لم يتصور أحد كيف ستعيش فى الصعيد، لكن أحمد معاطى كان قد دخل القصة قبل حضورها، ربما سبقه دخول والده، وكان تعامله مع والد شمشون، كان جرجس يبحث عن بدوى، رجل من بطون العائلات، يوفر له الحماية، يحمى حياته ويصون ماله، وحدود أطيانه وبهائمه ومواشيه، رحل جرجس وبقى شمشون، ومات معاطى وجاء أحمد، واستمرت العلاقة، شمشون يدفع لأحمد حتى يحميه.

هكذا يفعل الكل فى هذه البلاد. والاسم «بدوية». ويحميه وقت اللزوم، مجرد وجود الاسم يوفر له الأمن والأمان، والمحمى يدفع لمن يوفر الحماية. والدفع أنواع وأشكال، البعض يدفع مبلغا شهريا، والبعض الآخر يقدم مسانيه، جزءاً من كل محصول يدخل بيته.

هكذا تجمعت مصائر الثلاثة والتقت دون أن يدرى أحد منهم. والآن قتل اثنان، بعد معاينة النيابة لمكان الحادث، وقرار التحفظ على الجثتين لحين تشريحهما، بمعرفة الطب الشرعى، وبعد انتهاء هذه المهمة، صلوا على العرباوى فى الجامع، وعلى شمشون فى الكنيسة، ودفنوا العرباوى فى مقابر المسلمين قبلى البلد، أما الزوج فقد دفن فى ترب النصارى بحرى البلد، والثالثة فى الحجز تنتظر المحاكمة.

وجدتنى أعوم فى بحر من الحكايات، ذهبت إلى المأمور.

وبعده قابلت وكيل النيابة، وكان الرد على فى الحالتين واحدا:

ـ صدر قرار بحظر النشر.

سألت :

ـ ولم؟!

قالا :

ـ لحساسية الموضوع .

ـ حادث قتل .

قال المأمور :

ـ لا تنس أن القاتلة مسيحية والقتيل مسلم .

قلت :

ـ ولكن هناك قتيلا آخر مسيحيًا .

قال وكيل النيابة :

ـ الحكاية متشابكة ومعقدة، وتثير الكثير من الأمور السخيفة .

تعب المأمور من مناقشتى . فقال :

ـ أرجوك، جنب مصر الويلات .

استفهمت منه . قال لى :

ـ باب الطائفية يفتح بالمصادفة، بحادث عابر، ولكن يصبح من المستحيل إغلاقه .

قلت له . .

ـ ذلك أكبر تبسيط للأمور، من قال إن الحكاية تجرى هكذا .

رفضا الحديث معى، فى صلب الموضوع، ورفضا التصريح لى بمقابلة مريم، وهكذا لم أرها سوى فى المرة الأولى، عندما شاهدتها من بعيد لحظة دخولها القصر المهجور، وعند خروجها منه فى يوم العرض، الذى يمكن القول عنه إنه يوم الهول الأعظم.

أعطيت أذنى للناس، وما يقولونه، وكنت أغربل الحكايات وأنقيها، لكى أصل إلى الحكاية الأصلية فى النهاية.

- مصر الأنثى.

بين أحضان الصعيد الذكر.

هكذا وصف الناس زواج شمشون من مريم، بعد عودته بها من مصر أم الدنيا. بالتحديد من حى شبرا المزدحم بالناس، المرهق بالغبار والملوث بضجيج كل لحظة.

سألت رجلا عجوزاً.

- أريد القصة؟!

سألنى هو:

- أى القصتين تريد؟!

أدركت أن النبش وصولا إلى الحقيقة صعب.

قال لى:

- إن خطأين لا يصنعان صوابا.

أكمل:

ـ والحكاية كلها سلسلة من الأخطاء .

يتساءل العجوز ، لم بقى شمشون هنا وحيدا؟ لمَ لمْ يسافر مع من رحلوا إلى الشمال؟ حيث الأمان أكثر؟ وعندما رغب فى الزواج . هل لم يجد سوى هذه الصبية التى يزغرد الجمال فى ملامح وجهها؟ وهل لم يجد فى رجال الناحية بدوية له سوى أحمد معاطى ، فلاتى وعينه زائغة ، وما إن يشم رائحة امرأة حتى ترتعش شفتاه ، ويصيب التنميل كل جزء فى جسمه ، ويمشى النمل فى عروقه .

يقول العجوز :

ـ نصيب

يكمل :

ـ الصدف ترتب نفسها ، حتى تصبح أقدارا للناس .

أتذكر مريم من بعيد . وقفت أمام القصر قبل أن تدخله . لتمثل كيف قتلت الرجلين معا ، الزوج والعشيق ، كانت قد قالت فى التحقيق الذى أجرى معها ، إنها قتلت زوجها ورجل عمرها معا فى لحظة واحدة ، بحثا عن الراحة المستحيلة ، ومع هذا لم تأت الراحة أبدا .

وقفت أمام القصر ، أخرجت منديلا من حقيبة يدها ، مست به أركان عينيها مسا خفيفا ، قالوا إنها تفعل ذلك قبل أن تأتى الدموع ، التى بدت غزيرة ، برغم أن الموقف كان يتطلب نهرا من الدموع .

منذ صباها . . ومنذ أن خرطها خراط البنات وهم يقولون مريم

لشمشون، كانت محاطة بعدد كبير من الصبيان، ولم يكن فيهم من اسمه شمشون، وعندما كانت تسأل عن شمشون كانوا يقولون لها إنه في الصعيد.

كانت تسأل عن الحكمة في ذلك، فكانت تسمع حكايات كثيرة، شمشون ابن عمها، ولا يوجد في كل المحيطين بها من هو ابن عمها لزم، وهناك كلام بين والدها، ووالد شمشون منذ سنوات، منذ أن كانا ـ هي وهو ـ في اللفة، قطعتين من اللحم الأحمر، تعبثان في الهواء.

كانت مريم عندما تسمع هذا الكلام، تبكي وتقول إن هذا الكلام راحت عليه، يقولون لها إن الولد غني، جلس بمفرده على كوم الصعيد كله، جميع ميراث العائلة هناك، هو الوحيد الذي بقي، يصفون لها القصر الذي يعيش فيه، والحديقة التي حوله، والأرض التي يحتكم عليها، ربما كانت عودتها مقدمة لعودة العائلة كلها، فالمحتسب اختفى من بر مصر منذ سنوات طويلة. تشير إلى الصعايدة الذين يظهرون في أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون، بالتحديد إلى طريقة كلامهم، وملابسهم، يقولون لها إنه أفندي ومتعلم ولا يتصرف هكذا.

حكوا لها بتوسع وتطويل متعمد عن المشروعات التي يرعاها، والأموال التي يدخرها، والميراث الذي يقوم بحراسته، وحجم الأموال التي يحملها، عندما يذهب إلى البنك، والأوراق التي يعود بها منه، والتبرعات التي يقدمها لأهالي البندر، وكانت تحاول أن ترسم له صورة في خيالها.

جاء شمشون إلى مصر، جرت إلى الشرفة تحاول أن ترى سيارته

الخاصة التى أتى بها، لم تكن تحت البيت سيارة ولا يحزنون، سألت أمها عن السيارة، قالت لها باختصار إن السفر إلى الصعيد بالقطار مريح أكثر ومضمون من ناحية الحوادث، قالت فى عقل بالها. يبدو أنهم كذبوا عليها فى كل ما قالوه عن غناه.

رأته لأول مرة، الاسم لم يكن على مسمى، اسمه جعلها تتصوره رجلا عملاقا، أطول ما فى المشهد الذى أمامها، عريسها كان شابا عاديا، تبدو البدلة قلقة عليه، يبدو أنه لبسها من أجل هذه الرحلة فقط، لم يكن معه أى شىء من خيرات الصعيد، التى قالت لها إمها أنها ستعوم فيها.

كان شخصا يعانى من الذبول، خاملاً ومتعبًا ومرهقًا، لا يبالى بما حوله، أمها قالت لها، إنها متسرعة فى الحكم عليه.

رجل آت من سفر بعيد، كيف يكون منظره؟ التعب والإرهاق من الأمور الطبيعية، وهى عليها أن تجعل منه رجلا له حضور تشمه المرأة على البعد.

عقد عليها، أقام القداس فى كنيسة كبيرة، كل أمور الزواج مرت عليها سريعة، خاصة أنها كلها ابتداء من الخطبة، وتقديم الشبكة، وإجراءات الزواج تمت مرة واحدة، لم تجد حتى الفرصة للتفكير.

يوم السفر، رأت منظر القاهرة من نوافذ القطار، قطار الصعيد الذى تركبه مريم للمرة الأولى، تنظر مريم حولها، تنظر من النافذة تتسلل إليها أحاسيس غريبة، لا علاقة لها بالمنظر الذى تشاهده، تحاول أن تبحث عن شعورها بما تراه فلا تجده.

تركز فى البيوت، دهانات الحوائط، الطوب المبنية منه الجدران، المداخن، البيوت الآيلة للسقوط، الفراغات بين المنازل، البول على الجدران التى تشققت من الاهتزازات التى تحدثها القطارات المسافرة، الغسيل المنشور منذ الليلة السابقة، والذى يعبث به هواء الصباح الطرى.

الخروج من القاهرة، إلقاء نظرة الوداع على البيوت التى تجرى إلى الخلف، البيوت المتباعدة وبينها مساحات من الأراضى، لا هى مزروعة ولا هى مبنية، الدخول إلى مقدمات الصعيد، تبحث مريم عن صورة الصعيد فى ذهنها، من قبل كانت تتصور الصعيد عبارة عن شريط من الخضرة، يبدأ الشريط من الجانبين، من فوق صفين من التلال، تنحدر الخضرة من أعلى إلى أسفل، تنزل حتى مياه النيل كى تشرب منها.

كانت مريم تتصور - بعين الخيال - أن القصر الذى ستعيش فيه، سيكون فوق تل من هذه التلال المصنوعة من الخضرة، كانت تتصور أن حياتها ستكون سياحة مستمرة ولكن فى الهواء، وأنها ستقضى الصباح كله فى الإنصات إلى أصوات الخضرة الخافتة، إلى همسات الزرع.

نظرت مريم إلى المرآة الموجودة فى الصالون الذى تجلس فيه، كان وجهها فى بياض قطعة من الورق، وكان شمشون يجلس بجوارها، ولكنها شاهدته فى المرآة، كان غائبا، كان يحلق - قبل الأوان - بعيدا عنها.

اقترب القطار من محطة أسيوط، وكانت صامتة وكان هو صامتا

أيضا، مع أنها تصورت أنه سيقضى وقته كله فى الحديث معها عن الصعيد وما فيه، وأنه سيحوله أيامها إلى كتاب مفتوح، يقلب معها صفحاته، تخرج من صفحة لتدخل إلى أخرى.

بالقرب من مدخل البدارى، أحست أنها تقف أمام لحظة فاصلة فى حياتها، وأن قلبها يدق دقات لم تعرفها من قبل.

كانت الحياة تتسم بالقسوة والوحشية والجفاف، مدينة صغيرة هادئة، يستطيع الإنسان فيها بما يملكه من مال أن يجد الراحة، قالت لنفسها، عندما تجد الأموال الطريق إلى يديها، يمكنها أن تصبغ خديها ذات الغمازتين. وأن تستحم فى الكولونيا كل صباح. وأن تدعك قدميها فى ماء الورد كل مساء.

حاولت أن تبدو غير متحمسة فى حركاتها، لأنها كانت مندهشة من صمت شمشون، الشاب الذى كتب عليها - من الآن وإلى الأبد - أن يكون رجلها، خشيت أن يكون هذا الصمت تعبيرا عن بلادة بداخله.

بعد وصولها إلى البدارى بأيام، لا تنسى، لا تستطيع أن تنسى، كان هناك حادث قتل، وقع أمام البنك القريب من المركز، وحدث رد فعل فورى عليه، قتل آخر فى مبنى المركز، سمعت طلقات الرصاص، شاهدت مبنى المركز من بعيد، كان الدخان الأزرق يخرج من الباب، شمت رائحة البارود، وسمعتهم يقولون إن الميدان الذى أمام المركز كانت فيه جثث مغطاة بورق جرائد ملوث بالدماء.

سمعت حكايات كثيرة عن القتيل والقاتل، تناثرت التفاصيل

وكانت مختلفة فى كل مرة تستمع إليها، نظرت لزوجها، كان وجهها متحجرا، حركته كانت ميكانيكية، على الرغم من أوركسترا الموت وتراتيل الدمار، ورائحة الدماء فى الخارج.

تعجبت من حاله، لم تفكر أن تسأله عن اسم الميدان، قالت لنفسها إنهم من المفروض أن يسموه ميدان الشهداء، وأن يقام نصب فى منتصفه، تكتب عليه صور وأسماء الشهداء وتواريخ استشهادهم، نقلت فكرتها إليه، حتى تخرجه من صمته، تساءل هو: هل استشهدوا فى حرب حتى يقام لهم نصب لتخليد ذكراهم؟ قال نعم.

عاد يقول، إن الحرب فى الميدان، قالت له إن الحرب هى التى تحدد ميدانها، وهذا الميدان ميدان حرب، عندما عجز عن الاستمرار فى مناقشتها اتهمها بأن بالها رايق، تساءلت: وهل روقان البال - إن وجد - يعد تهمة؟ لم يرد عليها.

الليلة الأولى فى الصعيد، كان الليل ناعما كالحرير، تتلألأ ملايين النجوم فى قبة السماء المظلمة، تنفست ملء رئتيها، دخلت فى أنفها وانتشرت فى خياشيمها رائحة الصعيد، التى لا يمكن أن تنساها، رائحة الأرض التى تخرج الحرارة من جوفها، حرارة النهار التى تقابل برودة الليل، والمياه القريبة ورمال الصحارى.

كان الليل ناعما فعلا ولكن اليوم كان مرهقا لها، كان الصعيد يندفع إلى قلبها، يحيطه بيد غليظة، وكانت مفرداته تتسلل إلى شرايينها وكانت القاهرة وحى شبرا، تأخذان شكل وجه إنسان تحبه، ولكنه يبتعد عنها.

في اليوم التالى، اكتشفت أن القصر واسع، وأنه لا يعيش فيه سواهما، هى وشمشون، ربما كان أكبر مبنى فى البلد، وحوله حديقة واسعة من الجهات الأربع، تجعل القصر بعيدا عن الجيران.

عندما كلمها شمشون، كانت كلماته الأولى، بعد المناقشة الأولى عن ميدان الحرب ونصب الشهداء الذى من المفروض أن يكون فيه، كان كلامه معها عبارة عن طلب، ألا تكلم أحدا من الجيران، سواء أكان رجلا أو امرأة.

ـ الاختلاط يولد وجع الدماغ.

كانت هذه الجملة قاعدة من قواعد حياة شمشون، كان لا يقبل النقاش فيها، مس قلبها شعور بالخوف والوحدة، تحول القصر فى دقائق إلى سجن، ونوافذه أصبحت قضبانا، وبابه أخذ شكل أبواب السجون الكبيرة، على الباب حراس يمنعونها من المشى إن رغبت فى ترك هذا القصر.

كان ما أسمعه كثيراً، كانت الشوارع الخلفية فى البندر جائعة للحكايات، وكان عليَّ وحدى ـ فى النهاية ـ إعادة ربط الخيوط المقطوعة حتى أصنع منها حكاية، كان هذا يحتاج إلى وقت طويل، وقلت لنفسى إن هؤلاء الناس يستحقون هذا الجهد منى ومن غيرى.

مازالت تذكر أيامها الأولى، فى هذه البلاد. الجسد مشدود وإن كان لا يزال لينا. أهدابها تبدوان وكأنهما المدى، توشك أن ترفض المكان ومن فيه، وتهج وتطفش، وعندما تحاول تحديد اليوم، الذى يمكن أن تفعل فيه ذلك، تشعر بحالة من الضعف اللذيذ، وتؤجل

الهروب الكبير إلى الأسبوع القادم، ثم الأسبوع الذى يليه، والذى يلى الذى يليه، وهكذا.

كان جلدها - لا يزال - محتفظا بحرارة المدينة التى جاءت منها، وكانت روحها مازالت قادرة على إثارة الصخب والضجيج، وكانت عيناها تشعان بوميض الحياة.

تسرح، تتوه مع ذكريات عمرها، القريبة، كنت أعيش فى مصر أم الدنيا، إلى أن حضر إلى بيتنا أناس غرباء لا أعرفهم، لم أرهم من قبل، قالوا لى هذا عمك، وذاك خالك، فتشت فى وجوههم عن ملامح الأب والأم - أبى وأمى تحديدا - فلم أجد أى تشابه. قلت هذا لأمى، لأننى لم أجرؤ على أن أقوله لأبى. رسمت علامة الصليب، وقالت لى إن البطن قلابة مثل الأرض.

وعلى ذكر الأرض - أكملت أمى - إن أرضنا التى أخذت من جدودنا بالقوة، عادت لنا، الولد الذى يضع يده على جميع ما تركناه فى الصعيد الجوانى، جاء لطلب يدى:

- شمشون؟!

تساءلت.

- يحفظك الرب، شمشون، ما زلت تذكرين اسمه؟

فرصة وجاءت لنا تطرق علينا باب البيت.

جد جدك الذى أجبروه على المجىء إلى هنا، وكدنا أن ننسى ما كان لنا، وها هو رجوعك إلى هناك سيعيد لنا حقوقنا كلها. صحيح

من قال: ما مات حق وراءه مطالب، ونحن لم نطالب، ولم نجر وراء هذا الحق، ومع هذا فإن الرب سينصفنا، أيام قليلة، تحمّليها من أجلنا، ستعودين إلينا بعدها ومعك زوجك وأولادك، والأهم ما ضاع منا.

ما كان زواجها كاملا، كانت تنقصه ليلة الدخلة، بعد حفل الزفاف الذى أقيم فى مصر، قال شمشون آخذ عروستى إلى قصرى، أفضل من بهدلة الفنادق وحياة اللوكاندات التى يشعر المتغطى فيها أنه عريان، لم تعرف إن كان هذا بخلا؟ أم حرصا؟ أو جزءا من طبيعة الصعيدى فى أعماقه؟

تساكتت، حاولت أن تسكت الأسئلة، أن تدفنها فى حبة القلب، ليس من الطبيعى أن تبدأ رحلتها معه بالأسئلة، التى ربما قادت إلى الخلاف والاختلاف، وهى قبلت الزيجة من إنسان لم تكن تعرفه لأنها بذلك تنقذ أسرتها، مع أن من يراها لا يتصور أنها يمكن أن تكون شهيدة، لم تخلق للشهادة أو للاستشهاد ولكنها جاءت للاستمتاع بالحياة، من يراها لا بد وأن تنبت فى عقله، كلمتان فقط لحظة رؤيته لها «شبق الحياة».

فى الليلة الأولى لها فى البدارى، كانت مرهقة ومتعبة، ولكن فى الليالى التالية، اكتشفت أن هذا الزواج مازال ناقصا، لم يكتمل بعد، فكرت أن تكلم زوجها، خافت، والواقع هنا يخيف أكثر الناس شجاعة.

لو كانت أمها معها؟ لو كانت لها صديقة؟ هل يمكن أن تجد صديقة

فى هذه النواحى؟ صديقة تناجيها وتناغيها؟ وتحكى لها؟ وتثرثر معها وتبوح لها بأسرارها؟

فكرت فى الذهاب إلى الكنيسة، وتعترف، الاعتراف يريح الإنسان المتعب من تعبه، لطمت خدودها، بأى الأمور تعترف؟ الاعتراف لا يكون إلا بخطيئة، وهى لم تفعل شيئا، لا العيب الذى يتكلمون عنه فى شبرا، ولا الحرام الذى لا حديث لهم سوى عنه فى البدارى، أما حلالها فيبدو أنه معطل.

لا مفر، مهما كانت الظروف، لا بد وأن تتحلى بالصبر، ربما تمكنت مع الأيام - وليس الليالى - القادمة، من أن تقول بعض الملاحظات العابرة، ولكن قبل الكلام، أين هى الأفعال؟ تسمع أن هناك مداعبات على المرأة القيام بها، وحيل لا بد من إتيانها، أمها أعدتها لجميع الاحتمالات إلا هذا الاحتمال، الذى لم يخطر لها على بال.

من الصعب أن تسافر، هكذا بسرعة، إلا إن كانت غاضبة، هناك تليفون، ولكن هذا الكلام لا يقال فى التليفونات، تخجل، لا بد وأن تجلس فى حضن أمها، وعندما تقول، تهمس، لا تسمع ما تقوله الحيطان التى لها آذان. كيف تتصرف - إذن - وهى وحيدة؟ لا أحد بجانبها؟ لا بد من التصرف بحذر وحساب؟

قال شمشون ذات صباح، وهما يفطران، إن شئنا الدقة، نقول، وهو يفطر وحده، لأنها لم تكن تفعل سوى شرب الشاى، كميات كبيرة من الشاى، قال عن نفسه إنه عديم الخبرة، لم يكن يوجه كلامه

لها. كان يحكى وهو فى منتصف المسافة بين حديث النفس وتوجيه الكلام إلى إنسان يثق فيه ويستريح له، ويحبه ويأتمنه على أسراره.

قال إنه كان يعانى من بعض المتاعب، منذ فترة مراهقته، كما أنه مريض بالخجل الزائد عن الحد، الدكتور هو الذى قال له ذلك. عندما عرف منه بصعوبة بالغة أنه لم يسبق له أن مس جنس النساء خوفا من فكرة الخطيئة.

كان يحكى كل صباح، لا تدرى هى لم كان يختار الصباحات للكلام معها. لم كان يهرب من الأماسى والليالى مع أنها أكثر مناسبة للكلام والحكى؟ إنها وجدت من أجل ذلك. كان يتكلم عن المجهود الضخم الذى بذله من أجل الحفاظ على ما تملكه العائلة، أو ما تبقى منه بعد النهب والسرقة، إن هذا المجهود الذى كان من المفروض أن تقوم به عائلة بأكملها قد امتص كل رجولته، إنه يجنى ما زرعته السنوات السابقة كلها فيه مرة واحدة.

أما هى، فقد كانت تقف أمام المرآة بمجرد خروجه إلى أشغاله التى لا تنتهى وتشاهد أنوثتها وتسأل نفسها: لم تزوجها إذن؟ مادام يعرف نفسه حق المعرفة؟ لم يكن مفاجأً بأى أمر يخصه، كانت تقول لنفسها عن نفسها إنها قادرة على تحريك الجبل نفسه، الجبل الغربى الذى يتكلمون عنه.

كانت فياضة الأنوثة، رقيقة، مهيأة لخصب الأمومة، خلقت للسرير فقط. أخذوها من مراهقتها التى لم تعشها إلى سرير هذا الرجل. ما كانت تطلب من الدنيا سوى الخضوع لرجل خشن، نافر،

عملاق، قوى، عروقه منتفخة بدماء الرجولة، ومسامه تنز منها مياه الوصال.

بدأت تعانى من هول الليالى، تهمس لنفسها كلما جاءها الليل، ها هو السرير، وتلك هى غرفة النوم، بل إن القصر كله غرف نوم بدون حدود، وهى وهو كأنهما آدم وحواء ولكن بدون جنة، ولا تفاحة محرمة، ولا تهديد بالخروج من الجنة. كان يخيل إليها أحيانًا أنهما يعيشان وحدهما على الأرض كلها، خلا لهما العالم ولكن أين الوليف؟ وأين هو الوصال المستحيل؟

ذات صباح، كان يثرثر كعادته عن الرجال المربوطين والذين كتب الأعداء لهم عملا ليلة الدخلة، وصعوبة عرض الأمر على الحكماء؛ فهذا البندر لا أسرار فيه. ولا، لم يكمل الجملة؛ لأن مريم وقفت فجأة نظرت فى الأرض، وقالت كلمة واحدة: فلنحاول.

كان يقول كلامه شفيها، لم يقترب منها، كان يخاف منها، ومع هذا نطقت الكلمة، وهربت من أمامه. اختلت بنفسها تاركة له أن يتخذ الخطوة الأولى. بعد أن مضت أكثر من ليلة على طلبها، وبعد محاولات فاشلة للهروب منها، بدأ فى محاولاته، زاد من ملاطفاته لها، زارها فى سريرها كل ليلة تقريبًا وحاول، ولكنه لم يستطع.

تأكدت أن نيته طيبة وأنه مسكين وأنه يعانى. كان ثمة ما يمنعه من الوصول إليها. كانت مناورة غرامية محزنة، حتى أن الكلام فى الموضوع بينهما أصبح صعبًا بعد هذه المعارك الليلية الذليلة والفشل المتكرر.

كانت قد لاحظت عليه، بعيداً عن حكايتها معه، أنه إنسان متردد، لا يستطيع حسم أمر ما، يتراجع ويتراجع عن التراجع. وقال لها إن هذه الخصلة معروفة عنه في البلد.

كان يعيش في الطابق العلوي من القصر، كان يقول إن الهواء فوق أفضل. لم يصل إليه إنسان، هواء بكر. رنت كلمة البكارة في ذهنها. أما هي فقد قالت إن الاقتراب من الأرض أكثر يوفر لها حالة من الإحساس بالأمان.

كان يتحرك فوق وهي جالسة تحت. تقضي الساعات المؤلمة تحت جناح القلق المرعب. كانت تسمع صوت حركته كأنه رجع الصدى. يمضي الليل بطيئًا وهما هكذا، هي مسهدة في السرير، وهو قلق في غرفة علوية، كانت تشفق عليه، وكان يأسى من أجلها.

يظلان هكذا إلى أن تظهر خيوط الفجر الأولى، ويحدد الإنسان الخيط الأسود من الخيط الأبيض، ويتضح النهار أكثر وأكثر، ثم يطلع النهار في النهاية. لقد تعبت من هذا الضني، حتى الجدران التي تسترهما، وتفصلهما عن الدنيا، تعبت هي الأخرى من متابعة ما يجرى.

عندما كانت تسمع صوت قدميه على السلالم الخشبية، تعرف أنه نازل إليها. توشك أن تطلب منه البقاء حيث هو، أو أن تهرب هي إلى مكان ما في القصر، تفكر في الجرى إلى الحديقة المحيطة بالقصر، تختبئ وراء شجرة كبيرة حتى لا يراها، توشك أن تصرخ فيه، أن بكارتها لم تفض.

عرض عليها الذهاب إلى طبيب فى بندر غير البندر الذى يعيشان فيه، يجرى لها عملية فض بكارة، ربما كان هذا هو السبب؛ مريم رفضت الفكرة، وشمشون خشى الفضيحة.

كادت أن تجن من هذه المحاولات التى هدت أعصابها، جعلتها تعيش فى توتر مستمر، كانت تشعر بالعطش والرغبة فى الارتواء، لم يحدث لها أن ارتوت، لم تشم رائحة رجل. بدأت تخاف حتى من النوم على السرير، كانت تنام على الأرض، السرير مكان الهوان المؤلم واستباحة جسدها بلا طائل، وقد سبب لها هذا حالة إثارة دائمة، حتى هو بدأ يكره السرير. بدأ يقول فى خاطره إنه أبغض مكان إلى نفسه.

كان مظهره الخارجى أقرب لصبى نحيل وممصوص يمر بقصة حب لا أمل فيها ولا خير من ورائها، يفر من الآخرين، لا يطيق الجلوس فى حضرة النساء. كان يقول لها إن المسكنة هى أقوى سلاح فى هذه البلاد المدججة بكل مظاهر القوه والخشونة. وكان ينفر من الابتسامات ويقول إن وراءها أغراضًا.

وفى بعض الأحيان كان يحاول أن يبدو رجلاً أمام نفسه قبل أن يكون أمام الآخرين. والآخرون لا بد وأن يكونوا أقل منه. رجولة مصطنعة وخشونة غير حقيقية وصوت مرتفع بصورة مبالغ فيها يغطى على خواء الداخل، ومأساة الأعماق.

فى الأيام - وليس الليالى - الأولى لهما معًا، تمت عملية توزيع المسئوليات والاختصاصات فى القصر الكبير باعتبار أنه أفندى

ومتعلم، ومن المفروض أنه متحضر، وهذا التوزيع أصبح الهيكل الذى سارت عليه الحياة بينهما إلى آخر أيامهما معًا.

وفى الليلة ـ وليس اليوم ـ الأولى، وفى لحظة الفجر الندية، كانت الأمور قد حسمت. هى الملكة. وهو الطواشى. مهما عاشا معًا. لن يستطيع أن يرفع عينيه فى وجهها أبدًا.

كان يتساءل: ألم يكن من الممكن تجنب هذا الأمر؟ أليس ممكنا إسدال الستائر على هذا الأمر المحزن؟ ألا يمكن معالجة المأساة بتكتم؟ هل من المستحيل الاستمرار معًا؟ والاستغناء عن هذه التفاصيل الشخصية؟

بعد أن تأكد من فشله. كتب فى ورقة صغيرة، بدلا من كلامه مع نفسه الذى قد يوصله إلى الجنون:

ـ لا شىء.

أما هى فقد دونت:

ـ خيبة أمل. راكبة جمل. من جمال المسلمين.

لقد أصبح الحديث ـ حتى بينهما ـ مشكلة المشاكل.

ها هى الساعات الطويلة تطل عليها وألوان القصر تزداد رمادا، وبدأ النور الذى كان يشع من وجهها فى الانطفاء، اختفى الأرق من عينيها وأصبحت تشعر بعدم الاكتراث وبحالة من الاضطراب، بدأت تشعر أن جدران القصر أصبحت رطبة. وصورة الطفل الذى ستنير ضحكته حياتها أخذت تتباعد وتبهت.

أصبحت تسأل نفسها عندما يأتى المساء : أين النور الهادئ الشفوق؟ أين؟ ومع الصباح تقول لنفسها : زوجك هذا أم قطعة حلوى؟ تلك الحلوى التى لا يراها الناس هنا فى الصعيد سوى فى مولد نبى المسلمين؟

كانت تعانى من الصور المتناثرة على الشاشة المؤلمة للذهن، وتشعر بوجع فى طبلة الأذن التى أصبحت تكتسب أهمية خاصة فى حياتها، وكان القلب ـ قلبها ـ يعانى من لطمات كثيرة، وقعت عليه، وأقدام بلا حدود داست على حبته. كان السكون المخيم حولها يبدو كأنه غطاء، وكان وقت خداع النفس قد مضى.

وفى الليل كانت تثيرها أضواء الليالى المرتعشة التى تراها فوق المحلات على البعد، ورطوبة الهواء تحولت إلى عفونة أصابت أعصابها بأمراض كثيرة، وبدأت القوة تخاصمها إن القوة تجافى الضحية أكثر مما تجافيها الضحية نفسها.

اتجهت إلى صنع العرائس، وإن لم تجد البنات الصغيرات التى تهديها إليهن كل ما فى حياتها، كانت تحوله إلى عرائس، حتى بقايا الحياة اليومية كانت تصنع منها العرائس. كان زوجها يغضب من هذه العرائس، قال لها إن هذا بيت وليس مصنعًا للعرائس أو مخزنا لها، وهى رفضت حتى مجرد الاستماع إليه، ومضت تحول عرائسها إلى متحف لا يوجد فيه عريس واحد فقط.

شمشمون كان مشغولاً عنها. بمشاريعه الكثيرة، زراعة أرضه، المشاركة على البهائم ومشاريع تجارية فى البندر وفى القرى القريبة منه، كلها كانت مشاركة مع محمد وأحمد وعبد المولى وعبد النبى،

هو يدفع المال والباقى على من يشاركه، حتى حماية المشروع على شريكه، ألايكفيه تقديم رأس المال؟ وهل هذا قليل؟!

كان مشغولا عنها بالنهار، وكان يعانى من التعب والإنهاك فى الليل، وكانت تسأل نفسها لم أحضرها إلى هنا؟ كانت تستبعد فكرة أن يكون قد أحضرها من أجل الغسيل والطبخ وتنظيف القصر، ذلك أنها حتى بعد حضورها، هناك من يقمن بهذه الأعمال.

بدأ الحزن يتسلل إليها، أصبح رفيقًا دائمًا لها، ولكنها كانت تحاول الهروب منه، كانت تراهن على الأيام القادمة، كانت تتصور أن الزمن فى سيره كفيل بأن يقرب البعيد مهما كان بعيدًا عنها.

فى النهارات الطويلة، كانت الجدران تفصلها عن الناس، كانت تسافر فى الخيال، تختار الإسكندرية صيفًا والقاهرة شتاء، فى الإسكندرية البحر وزبد المياه، البحر الذى بلا شاطئ آخر، ذلك الكائن الضخم اللا نهائى، وفى القاهرة الحدائق والزحام ورائحة عرق الناس، وفى الإسكندرية كان ذهنها يطفو مع نسمات الهواء الباردة فى أغسطس، ومن القاهرة كانت تستدعى دفء البيوت فى يناير من كل عام، والدفء كان شيئًا آخر غير صهد الصعيد الخارج من باطن الأرض.

أصبحت تنام بصعوبة، تقول لنفسها فى البيوت القريبة من قصرها، توجد نساء أخريات، بعضهن يستغرقن فى النوم بمجرد وضع الرأس على المخدة، والبعض يقظات، لكل منهن جوعها الخاص، جوع إلى الرجل أو غيره.

شمشمون هجر فراشها قبل أن ينام فيه، قال إنه يحب النوم بمفرده، تعود على ذلك منذ سنوات، قال إنه لا يطيق أنفاس الآخرين ليس في الفراش، ولكن فى الغرفة التى ينام فيها، وأن هذه الأنفاس كفيلة بأن تجعل النوم يجافيه طول الليل.

وفى هذا البندر الصغير، تسرى الشائعات والأخبار بسرعة مخيفة مثل البترول المشتعل، وهى من ناحيتها لم تختلط بأحد، ولكن الناس من حولها تكلموا عن الحمل الذى لم يأت بطبيب أمراض النساء، الذى لم يزر المصراوية ولا مرة واحدة.

هل يوجد فى هذه البلاد من يمكن أن يعشقها؟ تسأل نفسها، لا تبحث عن إجابات بقدر ما تطرح أسئلة. ومن يعرف العشق فى هذه النواحى؟ هنا لا يوجد سوى الجفاف والخشونة والأشواك.

تغلق أذنيها عن الحاضر، وتنصت للماضى، تسمع بأذن الخيال أصوات ووقع أقدام، وتعلق على جدران الذاكرة صور القاهرة، أضواء النيون، الشوارع المبلطة والشوارع المسفلتة. الأسفلت الذى يسيح فى عز الظهر فى الصيف. شريط النظرات الذى يحيط بها كلما نزلت، الذهاب إلى السوق من أجل شراء طلبات البيت، السعادة ودغدغة الحواس عندما تسمع كلمات الغزل فى الشوارع.

مجىء الأماسى الطرية، وهواء الأماسى الذى يكنس حرارة اليوم الذى مضى، الراديوهات والمسجلات عالية الصوت التى لا مفر منها فى أى مكان، تحاول فى الصباح من كل يوم وهى تشاهد جسدها فى المرآة المواجهة لسريرها أن تلتقط خيوط قصتها من جديد وأن تتذوقها مرة أخرى.

وقت العصارى، تبدأ فى الاستعداد، تتجه إلى النافذة الغربية التى تطل على الحديقة، تستعد لكى تشاهد غروب الشمس، متعة كل يوم، التى توهم نفسها أنها تراها للمرة الأولى. تنظر فلا ترى سوى الحديقة، وبعد الحديقة سور ومن وراء السور تدب الأقدام فيرتفع غبار، يتكلم الناس فيصلها لغط. ترتفع الأصوات فيحاصر أذنيها هدير عال، وإن كانت لا تميز كلماتهم، عندما تصلها هذه الأصوات، تقول لنفسها إنها فى هذه البلاد الخشنة لن ترى الرجال الذين تعودت على رؤياهم فى القاهرة، فى مصر أم الدنيا، الوجوه الحليقة والجلود الناعمة، والشعور السوداء الفاحمة والأجساد الخارجة لتوها من الحمام، رائحة الكولونيا التى تنشرها، كل من يتحرك فوقه غيمة من الروائح، الأيادى البيضاء التى تشع منها حمرة جميلة.

ثم جاء الرجل.

تقول هى عنه الصعيدى، ويقول زوجها بتأفف المسلم، ولكن اسمه لم ينطق به لسان فى أرجاء القصر الواسعة. جاء إلى البيت للمرة الأولى، فتحت له الباب المرأة التى تحضر بالنهار لكى تقوم بأعمال البيت، نحاها جانبًا، ودخل، مشى فى الحديقة بخطى واثقة يخبط الأرض بقوة، دخل إلى صالة القصر.

كانت فى غرفتها وكان زوجها فى غرفته، سأل المرأة: وين رجل البيت؟! تنبهت مريم للجملة. قالت رجل غريب فى القصر؟ كانت المرة الأولى التى تجرح فيها صمته مثل هذه الأصوات التى لم يألفها من قبل.

جلس على كنبة فى صالة القصر، خلص قدميه من البلغة التى

يضعهما فيهما. طلب من المرأة التى فتحت له الباب الخارجى أن تعلق على دور شاى. «شاى صعيدى يا ابو الرجال؟» سألته المرأة فأكد لها ذلك. وطلب منها أن تبلغ شمشمون أفندى - نطق الشين سين - فوجدت لو قعها عذوبة فى أذنيها. أن تبلغه أنه هنا.

كانت فى يده عصا، وفى كتفه الأيمن بندقية معلقة. ركن العصا، وخلع البندقية. وجلس، لا تدرى هى لم خرجت إلى الصالة، وتقدمت إلى الصالة الواسعة التى لم تطأها قدم غريبة منذ مجيئها، ولم نزلت السلالم القليلة بهدوء وبطء؟ ولم سلمت عليه؟ ولم جلست معه؟ ولم تمنت لو أن سمسمون أفندى - هكذا نطق بالاسم - لا ينزل الآن، ودت لو تأخر أطول وقت ممكن. أو ربما لا ينزل أبدًا. يكتشفان معًا - هى وهو - وفاته فى التو واللحظة.

نظر أحمد معاطى إلى القصر، لكم تغير كل ما فيه. المرأة لها وجودها فى أى بيت. حتى لو كان هذا البيت قصراً. كان القصر خاليا يمرح فيه الهواء، الآن أصبح القصر متحفًا، كل ركن فيه مزدان بالأيقونات وتماثيل المسيح.

كان الصمت ثالثهما، نظر إليها، ونظرت إليه، كان الرجل الصعيدى يرمقها بنظرات ضخمة. كانت نظرات الرجل الصعيدى تنفذ إلى داخلها، كأنه يحاول أن ينقل لها رسالة، ولكنها لم تدرك هذا من النظرة الأولى.

نظرت هى إليه، طول بعرض، ملو هدومه، هذا هو الذى يستحق أن تناديه بشمشون وتصبح هى دليلة، التى تتوصل إلى سر قوته

وتسلبه منه. إنسان رأسه مليئة بالموت. هذا الصعيدى صاحب الشارب الكثيف. ومن فتحة جلبابه شاهدت المسدس. الذى كان يرفع الجلباب بصورة واضحة، كانت علامات الصحة واضحة على ملامح وجهه، برغم تقدمه فى العمر.

كان الرجل ثابتًا أمامها، وقررت هى أن تعامله بثبات يتساوى مع ثباته. وشعرت مع مرور الوقت البطىء بفقدان الرهبة أمامه، وأنها يمكن أن تتكلم معه وتفهمه ويفهمها.

نزل شمشون أفندى، اكتشفت أنه ينادى الصعيدى بصوت مسلوخ:

- ياريس معاطى.

وأن الصعيدى ينادى زوجها:

- يا سمسون أفندى.

وقبل أن يبدآ الحديث. نظر إلىّ شمشمون نظرة طويلة، وعندما لم أتحرك. قال لى:

- اتركينا بمفردنا يا هانم.

وقبل أن أتحرك من مكانى - وما كنت أريد ترك المكان أبدًا - قال له الصعيدى:

- ماذا تركت للصعايدة يا أفندى؟!

لم يعلق على كلامه، نظر إلىَّ ليؤكد طلبه أن أتركهما بمفردهما،

ومشيت، وإن كنت بعد دخولى غرفتى حاولت معرفة الموضوعات التى يتكلمان فيها، سمعت الكثير من الكلمات، وإن كنت لم أفهم. كان الرجل الصعيدى يتكلم بمفردات لم أفهمها. الجديد أن شمشون كان يتكلم أكثر منه بتلك الكلمات التى تحتاج إلى شرح.

بعد انصرافه جاء شمشون إلى الصالة. وقال:

- اف رجل لكع بشكل.

ضرب كفا بكف:

- كان طماعًا. والآن طماع ولكعى.

خرجت مريم إليه. سألته عنه. لماذا جاء إلى البيت؟ ولماذا يعامله زوجها بكل هذا القدر من الاحترام؟ الذى يكاد أن يصل إلى حدود الخوف منه؟

تهرب من الإجابة عليها، طلب منها ألا تهتم بالموضوع، ألحت عليه. وأصر هو على الرفض. وبان الغضب فى عينيه للمرة الأولى. سكتت مريم - وإن كانت رغبتها فى معرفة الموضوع قد تحولت إلى مرض - بعد خروجه سألت الشغالة. فقالت لها:

- معاطى بدوى سمسمون أفندى.

لم تفهم الجملة. سألتها من جديد. فقالت:

- يحميه هو وأمواله وأرضه وبيته، ويحصل على مبلغ نظير الحماية.

أحست أنها تائهة.

أكملت المرأة:

ـ اليوم عاود ليطلب زيادة فلوسه.

ـ لم؟!

ـ لأن سمسون أفندى تزوج. ولا بد معاطى يحمى له عرضه.

ـ يحمى له عرضه؟!

قالتها مريم ولكن لنفسها.

ـ طبعًا.

ـ هذا أكثر مما كنت أتصور.

أصبحت مريم تكلم نفسها، نادت عليه، صرخت بأعلى صوتها على شمشون. بحثت عنه فى أرجاء القصر، مع أنها كانت تعلم أنه ليس موجودًا، وأنه خرج منذ قليل.

عندما عاد شمشون إلى القصر مساء، رفض أن يتكلم معها حول هذا الموضوع وأى موضوع آخر. صعد إلى غرفته لينام. قال إنه متعب وكان بالفعل ـ وللمرة الأولى ـ متعبا. خيل إليها أنه كبر عشر سنوات منذ مجيء الصعيدى إلى البيت.

المرة الثانية التى يحضر فيها الصعيدى. كان شمشون خارج البيت. وعندما قالت له، قال إنه يعرف، وإنه لهذا السبب جاء. كان صعيديا آخر غير صعيدى المرة الأولى. صعيدى يشبه صعايدة السينما والتليفزيون، العباية فوق الجلباب. ويخيل إليها أنها خارجة من عند

المكوجى. وفى القدمين حذاء لميع أسود. أوشكت أن ترى وجهها فى لمعته التى كانت مثل المرآة. حليق الذقن منمق الشارب.

بنفس طريقة المرة الأولى، دخل هذه المرة، وصل إلى الصالة الداخلية فى قلب القصر، صفق بيديه، وعندما اقتربت منه المرأة الشغالة، هيابة وجلة، طلب منها شايا، وسأل مريم التى كانت تستغرب هذه التصرفات، ماذا تريد أن تشرب، كانت تفكر فى الاحتجاج على هذه الطريقة فى التعامل، فهذا البيت ليس بيته، لهذا البيت رجل هو الذى يملك هذا الحق.

طريقة تصرفه جعلت الكلمات تموت على شفتيها ولا تنطق بكلمة واحدة، كانت المرة الثانية التى تراه فيها، ومع هذا اكتشفت أن مسام جلده معروفه لها ومألوفة بصورة تدعو إلى الفزع. نظرت إليه بفضول وتحت هذه النظرة، أرخى عينيه اللتين يشع منهما نور الحياة القوى.

كان وجهها يبدو شاحبا فى الأضواء القوية التى تغمر الصالة فى هذا الوقت من النهار. كان وجهها صغير التقاطيع مثل وجوه الأطفال. وكانت عيناها تراقبان الرجل الجالس أمامها بكل دقة.

خيل إليها أنها عثرت أخيراً على رجل لم تنضب فيه الرجولة بعد، قارنت بينه وبين زوجها. كان زوجها أفنديا. وفى هذه البلاد يقولون إن الأفنديه ليسوا رجالا. هياكل محشورة فى ملابس ضيقة.

الصعيدى كانت رجولته واضحة، صدره، ذراعاه، هيكلة كان كبيراً. تعبت حتى وصلت إلى شعر رأسه. رأت قدميه تبدوان من تحت الحذاء اللميع. أحست بمسام جلدها تتفتح وأن الدم يخرج من

مكامنه وينتشر حتى أطراف جسدها. وسرت لذة أصابتها برعشة. وقررت الاستجابة لما يريده هذا الصعيدى.

خرجت من عذاب لتدخل فى عذاب آخر. عذاب المقارنات الدائمة بين شمشون أفندى وأحمد معاطى، بين زوجها وعشيقها. لم تكن تحب كلمة العشيق هذه، وإن كانت تجد لذة فى تذوق هذه الكلمة الغريبة التى كانت تدخل حياتها لأول مرة.

فى القصر الكبير، كانت البندرية تلبس جلبابًا بيتيًا بنصف كم، وفتحة الصدر واسعة، والجلباب البيتى يرتفع عن سيقانها كثيراً، إلى ما فوق الركبتين بقليل، ودائمًا وأبدًا كانت كعوب قدميها عليها حناء.

كانت مترددة وأعصابها المتعبة لم تستطع احتمال هذا التردد الأبدى. خطوة واحدة وتطوح الرياح كل شىء. كانت امرأة مرتعشة الكبرياء. يشعر قلبها بإرهاق الطبيعة من حوله. زجاج النوافذ يترنح، رسوم الأسلاف والأجداد على الجدران ترتجف من الذعر. أصبحت تشتهى الراحة الوحيدة لها فى هذا المكان. أن تجد نفسها بمفردها. يمتلئ قلبها باللهفة. تكاد الأنفاس أن تتوقف. إن اقتلاع مسمار واحد قد يكفى لانهيار بنيان متصدع مهدد بالخراب. لم تعد قادرة على السيطرة على نفسها، ولا الدفاع عن نفسها تجاه رائحة الرجل الصعيدى. مزاجها يخونها. أصبحت مثقلة الخطى. ولاحت لها الأخاديد فى الأرض التى كانت تقف عليها.

فى الوقت الذى وصل فيه الضنى إلى غايته، أشار مقياس حرارة البندر إلى مقدمات العاصفة، ولم يكن من الممكن التراجع. فالطريق

الذى سلكته كان من الثلج . الثلج الذى هو حلم الأحلام فى هذه البلاد . وذاب تحت وهج العاصفة . إن السأم قتال . وكل جمل زوجها تبدأ بكلمة واحدة : أكره . أما الصعيدى فليست عنده سوى جملة واحدة . يبدأ بها كلامه : أحب . بالحب يبدأ الكون عنده .

حلمت بنفسها فى المنام . كانت تسأل نفسها من جديد : مع من تخون زوجها؟ كان فى ذهنها رجل محدد . تحاول الهروب منه إلى شرفتها ، التى تحولت إلى بحر من الكلمات ، يعوم فيها الرجل الوحيد الذى رأته بأم عينيها منذ أن جاءت إلى هنا .

كانت تنظر إلى الرجل الصعيدى بعينين رافضتين . سألت نفسها هل تحلم بأمير من الأمراء؟ كان زوجها قد خرج من دائرة جسدها التى لم يدخلها ، بل لم يقترب منها ، وكان قد محى من ذهنها .

نظرت إلى الصعيدى ونظر إليها من جديد . ودق قلبها فى جنون . رفع يده ، دارى بها عينيه ، حتى لا يصاب بالدوار . قال لنفسه وليفتى . الأرض أرنبة حبلى دائمًا . تلد لكى تحبل ، وتحبل حتى تلد . دائرة مفرغة من الخصب والنماء . كان عطر صدرها العارى قد أسكره وشعر بارتعاشة جسد رجل مهتاج . وهى وصلتها رائحة عرق رجل يقاوم الرغبة . وقال الراوى على ربابته ، ها هو قدر البدارى معلقا بشعره .

كانت فى بدايات اللقاءات مع الصعيدى تشعر أن كلماتها مفتعلة إلى حد ما . ولكنها كانت تستمر فى طحن الكلمات . كان قلبها يدق دقات باردة لها رنين مفزع على قفص صدرها .

في رحلة التردد والتمنع، فكرت أن تخبر زوجها أن الصعيدى يحضر إلى القصر فى غيابه أكثر من حضوره فى حضوره. ولكن الشغالة وهى امرأة فقيرة من أهل البدارى، واسمها دميانة، حذرتها من ذلك، قالت لها أن الجحيم يقف وراء هذه الكلمات إن نطقت بها، وأنها قد تخسر الجمل بما حمل، والصمت أفضل.

بعد المرة الأولى، التى كانت أقرب إلى الاغتصاب اللذيذ الذى كان له طعم الشهد فى كل جسمها، لم تشعر بالنصر ولا بالحبور، ولكن بإرهاق، إرهاق لا حد له. عجزت عن تعديل مفردات ذهنها حتى يتقبل هذا الوضع الجديد ويتعامل معه.

كان قد قال لها، وهو يقبلها، كان يلهث:

ـ لن أعيش من اليوم إلا من أجل خدمتك.

بعد أن انتهى، وبعد أن انتهت مما كانا فيه. انساب الصعيدى من فوقها، ورحل، قالت: ليته لم يترك أثرًا، ومع هذا كانت تتصاعد رغبتها فيه من يوم إلى يوم آخر. وبعد الانتهاء كانت تطلب منه أن يتركها لوحدها. سمعت ساعة القصر الكبيرة تدق معلنة انتصاف الليل. أثنى عشر دقة رتيبة ومملة. كان لها رنين معدنى. كانت تود أن تبقى وحيدة. وأصبح سكون الليل غويطا لدرجة أنها استمعت إلى دقات قلبها القوية.

كانت تعيش قوة الاستيقاظ، ومرارة مواجهة الواقع الجديد الذى عليها أن تتلاءم معه. كان الصعيدى يراعى الأصول. يحضر عندما لا يكون زوجها موجودًا. وينصرف قبل حضوره، ولا يترك أى أثر لوجوده.

ولكنه ومع مرور الوقت، أحضر جلبابا من الحرير وتركه فى غرفتها. قال إنه يستريح فيه. أصبح يحضر إلى القصر وزوجها فى غرفته فى الدور العلوى من القصر. أول مرة حدث فيها هذا، استبشعت هى الموقف، لطمت خدودها. وأغلق هو الباب الذى يفصل الدورين عن بعضهما ووضع وراءه بعض قطع الأثاث.

حذرته من أن شمشونها يمكن أن يقدم على أى تصرف متهور. قال لها إنه يعرف آخر سمسونها. وهو متأكد من ذلك. ورجلها ـ قالها ساخراً ـ له سقف معه لا يمكنه أن يتعداه، مهما كان حتى لو صعدا معًا إلى غرفته العلوية عرايا كما ولدتهما أمهما.

فى المرات التالية، لم يعد الصعيدى يهتم بإغلاق الباب الذى بين الدورين. وأصبح يتعمد إصدار أصوات تعلن عن وجوده. وعندما كانت مريم تتجرد من ملابسها للصعيدى، كانت تشعر بخطوات زوجها فى الغرفة العلوية، لا تعرف إن كانت الخطوات متوترة أم عادية؟ فكرت هل تستغيث به؟ وإن فعلت. هل ينجدها؟ ثم هل يعرف ماذا يتم فى غرفتها؟

قالت للصعيدى إن شمشونها طول النهار خارج القصر. فلماذا يأتى إلى القصر ليلاً؟ وهو وقت وجوده فيه؟ هل الهدف هو إذلال زوجها؟ وكسر عينيه؟ قال لها إنه لا يحب هذه العملية سوى فى الليل، المضطر هو من يفعلها نهاراً. وهو لم يعد مضطراً، ثم إن فعلها وسمسونها فوقهما، يسمعهما ويسمعانه، ويشم رائحة ما يقومان به، يوفر له من اللذة ما لم يشعر به سواء مع زوجاته الأربع أو خليلاته اللاتى بدون عدد.

كان يستمتع بالكلام الذى هد أعصابها وأفقدها القدرة على الإحساس بما يجرى حولها، وأصبحت تسلم نفسها لدوامة من الاغتصاب المستمر. لم يعد لما يجرى حولها أى طعم، وبالذات زيارات الصعيدى التى لم يعد لها سوى طابع كابوسى. وموقف زوجها المتجاهل لما يجرى لها. لدرجة أنها أصبحت تقضى أسبوعًا دون رؤية زوجها، كان يهرب منها، والصعيدى يزداد إقبالا عليها، وهى لا تعرف ماذا تفعل فى هذه المصيبة.

ولكنها عندما بدأت تشعر بمقدمات الحمل.

أدركت أن الاستمرار أصبح مستحيلا.

٩- عنتـــرة

وهـــــــدى شـــــويـه

يا وابــــور الســـفـــر

وهـــــــدى شـــــويـه

يا وابــــور الســـفـــر

لما أبـــويا العـــزيـز

يـوصــــى عـلـيــــه

. . القطار الذى لم يعد قطاراً، الصندوق المغلق المعزول عن الناس والدنيا، زجاج سميك يفصلك عن الأصوات والروائح وطعم الحياة، حتى ركابه يتأثرون بهذا الجو. ما أن يتحرك القطار ويبدأ سيره حتى يقوم كل منهم برحلة ولكن إلى داخله، يسقط فى بئر ذاته ولا توجد لديه الرغبة فى الخروج من هذا البئر.

أحاول الاستماع إلى الصوت، صوت العجل الحديدى الذى يصطدم بالقضبان الحديدية بشكل رتيب، وتناغم موسيقى نحاسية تبدد الوحشة. نعم خشن ولكنه يصل إلىّ خافتا مرهفا.

أقول لنفسى لن أركب هذا المكيف المفتخر المحنط مرة أخرى. سأركب القطار القشاش كما يقولون، لن أركب هذا الديزل، الذى يقولون عنه فى الصعيد المستعجلة.

أسمع صوت يتكلم عن هذه الفخامة، يقول إنهم يعزمون على القطار قبل أن يتحرك من الجراج بكوب من النشا. يصحح له أحد الجالسين، القطار يخرج من المخزن وليس من الجراج، الجراج للسيارات، والمخزن للقطارات. يتكلم أحد الجالسين عن مخزن القطارات فى مصر. وضخامته. فى حجم مديرية من مديريات الصعيد. يحكى عن التائهين والحيارى الذين بدون بيت، عن الذين يتصنعون النوم قبل أن يصل القطار إلى آخر الخط فى مصر، ويهربون

تحت الكراسى عندما يأتى العسكرى والكمسارى ليتأكدا من خلو القطار من الناس.

بعد التفتيش الصورى، يقضى الغلابة والمساكين الليالى فى القطارات وهى واقفة فى المخازن يحملهم الخيال بعيداً. يتحدثون عمن وجد لقية من الذهب فى القطار أثناء مبيته فى المخزن، ومن ضاجع أجمل خواجاية على الأرض فى عربة النوم، وكيف بددت هذه الجميلة الفاتنة هدوء الليل فى مخزن القطارات الواسع. وهى تئن وتتوجع تحته من عمق اللذة. ومن اصطدم وهو يختبئ بجوال حشيش، وقرص أفيون خام تصل أسعارهما إلى ملايين الجنيهات، ومن وضعت فى القطارات المخزنة، ومن حملت فى دورة مياه عربة درجة ثالثة.

ثم يستديرون إلى الماضى، عندما كان القطار مجرد وابور قديم، وابور يتغير اسمه من محطة لأخرى، فهو فى محطة مصر اسمه وابور الساعة اثنى عشر. وفى المنيا يتغير اسمه فيصبح وابور الساعة ثلاثة. وفى كل الأحوال فهو الوابور المقبل على الصعيد.

يتحدثون عن الأيام البعيدة، تلك الأيام التى كان الوابور يشرب الماء فى كل محطة يتوقف فيها، خرطوم غليظ يدخل فى مقدمة رأسه، ويبدأ الماء فى النزول، ولحظة نزول قطرات المياه على الفرن تمتلئ المحطة من الأرض وحتى السماء بذلك البخار الأبيض.

- عنتر كامل مصطفى.

كان الاسم غريبًا على أذنى، برغم أنه يبدو من ردود فعل الجالسين

من أعلام الصعيد، يتحدثون عنه وكأن الجميع يعرفه . . ومن لا يعرفه مقصر.

تساءلت:

- مـن؟!

- عنتر كامل مصطفى.

انتظرت باقى التفاصيل:

- قتـل؟!

- قتل من؟!

- عنتر كامل مصطفى.

بدا لى الأمر سهلاً، لا يستحق كل هذه الألغاز، ولا حتى تقديمه لى بهذه الطريقة، شخص قتل نفسه، نقول عنه فى القاهرة إنه انتحر، أنهى حياته بنفسه، يحدث هذا كل يوم. وللانتحار أماكنه المعروفة فى القاهرة، ومواسمه أيضًا. تساءلت:

- انتحر؟!

- أعوذ بالله.

أكمل محدثى:

- المنتحر كافر، لا يموت على دين الله ولا يقابل ربه.

عدنا إلى الألغاز والغموض، وبعد الانتهاء من فكرة الانتحار وموقف الدين من المنتحر، قالوا لى:

- عنتر كامل مصطفى قتل عنتر كامل مصطفى.

فضلت الانتظار، فسمعت:

- أحدهما ذهب إلى القبر.

ما داموا يقولون أحدهما، لا بد وأن هناك شخصًا ثانيًا.

تساءلت:

- والثانى؟!

- مجنون.

قال واحد:

- فى مستشفى الأمراض العقلية متسع للجميع.

قال صاحب الحكاية:

- مستشفى الأمراض العقلية؟ إنها حلم.

- ولم؟!

- لأنه جنون سياسى.

قلت لنفسى حتى الجنون هنا أنواع.

وبدأت الحكاية، ولكن من آخرها. ومن يحكون الحكايات هنا يضعون لها عناوين. صاحب الحكاية قال إنه لو كتبها لوضع لها أحد العناوين الآتية:

- القاتل والقتيل.

ـ عنتر الذى قتل نفسه .

ـ العسكرى والمصحف .

ـ العصا الكهربائية وكلام الله .

ـ سيف العسكرى وكلام المصحف .

قلت له ، تكفى كلمة واحدة : عنتر . والحكايات تبدأ صغيرة هنا ، ثم تكبر وتنتفخ مثل بالونات الأطفال ، ولكن عند النبش فيها ، والبحث عن أصولها الأولى ، تصغر من جديد ، تنكمش ، لا أحد يعرف كيف تبدأ الحكايات ولا أحد يعرف كيف ينهيها .

صاحب الحكاية يفتر حماسه لها ، يمط شفتيه ويقول :

ـ لِمَ تتوقفون أمام الحكايات العادية ، عسكرى أصيب بلوثة ، وسافر إلى قريته ليعيش فيها ما تبقى له من أيام عمره . كانوا رحماء معه ، بدلا من ذهابه إلى السرايا الصفراء والكتاف وحياة المجانين سيعيش مع أصله .

ولكن الآخرين يقولون إنه كان بطلا رياضيا ، كان يضرب به المثل ، فلاح رياضى . وبعد فض المظاهرة الأخيرة جرى له ما جرى . أشم فى الحكاية روائح غريبة ؛ فأمسك الخيط من آخره لعل وعسى أن أصل إلى أوله .

هذه المرة ، الخيط خيطان . وعنتر عنتران الاسم واحد : عنتر كامل مصطفى . ولكن عنتر الأول يعيش هنا فى قلب الصعيد . وعنتر الثانى ابن الصعيد أيضًا ، ولكنه عندما جند فى الجيش حولوه إلى الأمن المركزى .

قوى وأمى، ذهب وعاد يقول لأقاربه هامسًا:

- أنا من القوات الخاصة.

عنتر الأول شاب، لم يتعد الخامسة والثلاثين من عمره، لم يكمل تعليمه أيضًا. كان والده بقالا فى البندر الصغير. توفى الوالد، فانقطع الابن الأكبر عنتر عن مواصلة التعليم، تضحية تحدث فى الكثير من العائلات المصرية. ولكن سنوات التعليم التى لم تكتمل كانت قد تركت فى قلبه البذرة الأولى. يعرف القراءة والكتابة. ونقش على جدار قلبه كلام الله. حفظ القرآن الكريم وختمه.

عندما وقف فى دكان البقالة، لأول مرة بعد وفاة المرحوم والده. ونفض تراب الأيام عند الدكان وأجرى به بعض التعديلات، نزع صور الممثلات والممثلين التى كانت تزين جدران المحل، والتى كان والده قد علقها، وحتى لا يستخدمها أحد بعد رميها، حرقها، أشعل فيها النيران، ولأنها كانت أوراقًا قديمة، شاطت من الشمس والقدم، فقد سرت فيها النيران بسرعة.

أحضر لوحة كبيرة، بطول صبى فى العاشرة من عمره لها إطار فضى، وفوقها زجاج لامع، وقال لمن شاهدوا أحرفها الصغيرة، وحاولوا قراءة ما فيها:

- فيها كلام الله كله.

علقها فى صدر المحل، وركب فوقها لمبة نيون بيضاء على شكل هلال. وأمامه على البنك وضع مصحفا، القرآن الكريم. والمصحف

على خشبة تجعله مفتوحًا دائمًا. وفى جيب جلبابه الأبيض مصحف صغير، يبدو جزء منه.

كان المحل المقابل له مباشرة محل صائغ. وعندما كان عنتر يحرق صور الفنانات خرج المقدس محب وضرب كفا بكف. قال إن عبادة الرب أمر بينه وبين الإنسان، لا يجب أن يشعر بها أحد، وإن كان لم يقل إن ما يقوم به عنتر لا مبرر له. بالتحديد الإعلان عنه بهذه الصورة الصاخبة، هو المبالغ فيه.

عنتر لم يكن يسمع أحدًا، لم يكن يرى أحدًا. كانت عيناه معلقتان بنجم فى السماء لا يراه سواه. وعندما دخل مرحلة الرجولة ونبت شاربه، وطلعت ذقنه لم يحلقهما، أطلقهما، ضحك التجار فى السوق وقالوا: البقال الشيخ. أو الشيخ البقال.

ملابسه قطعة من البياض، ووجه صحن من اللون الأسمر، وحوله دائرة من الشعر الأسود الكثيف الغزير. قال إن عمله مؤقت، ووجوده فى هذا المكان عابر، ولولا ظروف العائلة بعد وفاة الوالد، ما وقف هنا، وإنه بمجرد وصول سفينة العائلة إلى شاطئ النجاة، سيترك هذا المكان، ويتفرغ للعبادة فقط.

حدد من اليوم الأول شاطئ النجاة، بأن يصبح أحد أشقائه قادرًا على القيام بالعمل بدلا منه. قال جيرانه إنه لن يفلح فى أى من العملين؛ ذلك أن صاحب بالين كذاب.

كانت الناس تستريح له، والذين يذهبون إلى دكانه للشراء، كانوا يسمعون كلامًا يريح الفؤاد ويهدئ الضمير. والراديو الكبير المصنوع

من خشب زمان والمعلق فى أعلى مكان من الدكان، لا يتحرك مؤشره عن محطة القرآن الكريم، من لحظة فتح الدكان وحتى لحظة إغلاقه، كل هذا الجو مع البخور الذى لا ينقطع عن الدكان، جعل الشراء من عند عنتر متعة روحية.

وقت الصلاة، كان عنتر ينزل باب الدكان إلى النصف ويوصى جاره، ويذهب إلى المسجد القريب. قالوا له إن العمل عبادة. فرد عليهم إنه يحصل على أربع وعشرين ساعة له ولحياته ولتجارته، وأنه عندما يخصص خمس ساعات، كل يوم لمن وهبه كل ما فى حياته، فهو يقدم له أقل من الحد الأدنى. إنه حتى لو قدم حياته بكل ما فيها، فهذا فقط وفاء بما عليه من دين. وما أندر الذين يوفون بالدين فى أيامنا العصيبة هذه.

كان عنتر الأول شابًا غريب الأطوار. لم يتحول دكانه وهو شاب وأعزب إلى مكان تقصده الفتيات، مثلما يحدث عاده مع أى بقال فى نفس ظروفه، ولم يصبح مرتعًا للمتسكعين من شباب هذه الأيام مثلما تصور جيرانه، كانت عيناه على السماء، يشرب من قلبها سلسبيل الحكمة والهداية.

لم يره أحد يأكل، لم يشاهده إنسان يشرب، عيناه تجريان بنهم على المصحف، وأذناه تتابعان بوجد ووله ذلك الصوت القادم من الراديو القديم، والذى كان يصله واضحًا رغم صخب الشارع.

لم يكن يصل إلى أذنيه إلا ما كان يرغب فى الاستماع إليه، ولا تشاهد عيناه إلا ما يريد رؤيته. عندما كان يغلق باب دكانه فى الليل، كان يقول إنه ذاهب إلى المسجد، لكن هدفه من الذهاب لم يكن

الصلاة فقط، مرة يقول إنه ذاهب من أجل الحضرة، وأخرى يؤكد أن هدفه هو الاعتكاف، وثالثة: أنه ذاهب لمقابلة إخوانه فى الله، وأنه قد يبقى هناك حتى الفجر.

وإخوانه كانوا يقابلونه فى المسجد، ولكنهم بدءوا فى الوصول إلى الدكان، كانوا يحضرون لاصطحابه إلى المسجد فى الذهاب إليه والعودة منه، ولكن أوقات وقوفهم بدأت تطول، وقام عنتر بإعادة ترتيب الدكان من الداخل، حتى يوفر لإخوانه مكانًا يجلسون فيه عند الحضور إليه.

أوقات حضور إخوانه طالت واستطالت وعددهم أيضًا أصبح فى ازدياد مستمر، وكانوا مثله فى كل شىء شبان فى مقتبل العمر، لا يلبسون سوى الجلاليب البيضاء، بياض مثل الحليب، جلاليب نظيفة يشرب من فوقها العصفور، ذقونهم سوداء كثيفة.

قال التجار عنهم إنهم صبية صغار، جرى فطامهم منذ أيام قليلة، لون لبن الأم ورائحته مازالت آثاره على شفاهم. سأله جاره عنهم، فقال له إنهم طلاب فى الجامعة، فى كليات مختلفة بعضهم من البندر والبعض الآخر من القرى القريبة من البندر.

سأله جاره:

- وماذا يجمعه بهم؟

قال له:

- الطريق الواحد.

ـ أى طـريق؟

ـ طريق صاحب كل الطرق، طريق الله.

كان المقدس محب يتصرف وكأنه لا يرى عنتر، وكان قد امتنع عن الحديث عن أى أمر من أمور عنتر، كأنه لا يراه، ولا يسمعه ولا يشعر بوجوده. ما إن بدأ الشباب يترددون على المحل، حتى بدا المقدس محب وكأنه قد ركبه العصبى.

غير المقدس محب زجاج باب محله، أحضر نوعًا غريبًا من الزجاج، لم يره أحد من قبل فى البندر ولا فى البنادر المجاورة. قال إن ثمنه غال، قريب من أسعار الذهب، يمكن المقدس محب من رؤية من هو خارج المحل. ولكن الذى فى الخارج لا يرى من بالداخل أبدًا، ولا حتى بأحدث نوع من النظارات المعظمة.

قال المقدس محب إنه يلمح فى نظرات هؤلاء الأولاد أمورًا لا تسر الخاطر. وترحم من جديد على عم كامل الذى ما كان أحد يتصور أن وفاته ستتسبب فى كل هذا. عندما كان يحضر إلى محله صباح الاثنين وهو اليوم الأول فى أسبوعه. بعد العطلة التى يحصل عليها بمفرده يوم الأحد، كان يسأل عما حدث بالأمس. هل حام أحد هؤلاء الشباب حول دكانه أو حتى هل اقترب منه.

قام بعمل إضاءة إضافية أمام دكانه. ولم يعد يطفئ النور الداخلى للمحل كما كان يفعل من قبل، من باب التوفير وخوفًا من الحرائق، ولولا ضيق ذات اليد، لعين خفيرًا ليليا لحراسة المحل، يستلمه منه ليلا، ويسلمه له فى الصباح.

سأله باقى التجار عن هذه الاحتياطات، وما هو الداعى لها. قال إنه يشم فى الجو روائح غريبة، وإن كان من الصعب تحديد ما يشمه. لم يتحدث مع عنتر، لا حول هذا الموضوع ولا غيره. كان يتجنب حتى مجرد الحديث معه. عندما كان يراه قادمًا من بعيد، كان يدخل إلى محله فوراً، ويضرب الباب فى وجهه بصورة. يعبر بها عن رفضه لكل ما يفعله عنتر منذ أن وقف فى المحل بعد وفاة المرحوم والده.

قال المقدس محب، إنه رآى فى المنام يوم وصول عنتر إلى المحل بومة سوداء تطير فى الشارع، ومن يومها وهو لا يستريح لوجوده. عرض شراء المحل بأى ثمن، وإن كان باقى التجار قد نصحوه بنسيان الموضوع وعدم الكلام فيه.

طلبوا منه الهدوء، لأن المحل سيغلق بدون تدخل منه. فالولد عنتر لا عمل له سوى الجلوس مع إخوانه. الزبائن قلت، والبيع أصبح نادراً، والأحاديث أهم عنده من البيع.

كان المقدس محب يستشعر خوفًا غامضًا، قال إن الأموال تجرى فى أيادى الأولاد برغم ركود الحال، فما أهمية الدكان والتجارة. أكد أن عينه اليسرى ترف بصورة منتظمة منذ فترة، وأن العين اليسرى عندما ترف لا يكون هناك خير.

الأيام تأتى معها بكل ما يزعج المقدس محب الجواهرجى، ذلك أن التجارة عادت تمشى جنبًا إلى جنب مع الكلام واللقاءات والنقاش. كان الشيوخ الصغار، أو الشيوخ الأولاد، كما يحب المقدس محب أن يسميهم، الذين يحضرون اللقاءات يشترون من المحل جميع طلباتهم.

لكن المقدس محب استراحت نفسه عندما حضر مخبر من الأمن. سأل عن نشاط الجماعة التى تحضر إلى محل عنتر. قال المقدس محب:

- تقصد الشيخ عنتر؟!

وقبل أن يسمع الإجابة. قال من جديد:

- والجماعة إياها.

تحدث، أفاض، حكى وتكلم، أخذ المخبر إلى داخل محله. حيث يرى عنتر وجماعته دون أن يروه. كان توفيقًا من عند الرب عندما ضحى بماله واشترى هذا الزجاج الغالى. والمخبر كان يستمع إلى حكايات المقدس محب بنصف أذن. كانت عيناه قد التصقتا بكميات الذهب المكومة فى فتارين داخل المحل وخارجه. كان المخبر يحرك رأسه بهزة منتظمة فيبدو وكأنه يستوعب ما يقال له. ولكن نظراته كانت تطوف على الذهب بهدوء.

والمقدس محب الجواهرجى، كان حزينًا وهو يحكى للمخبر، فهو لا يملك ما يمكن أن يقدمه كهدية للمخبر، خاف من فكرة تقديم مال له، هذا غير مضمون النتائج. فكر فى أصغر قطعة من الذهب، بالتحديد فى ثمنها. أوشك أن يخرج دفتر حساباته ليضرب ويطرح ويجمع ويقسم. خاف أن يأخذ المخبر باله من الحكاية. وبنى آدم طماع بطبعه.

قال المقدس محب لنفسه، إن حضور المخبر هذه المرة لن يكون الأخير. ما داموا قد بدءوا فى التحريات وجمع المعلومات عن عنتر

وجماعته، ستكون هناك زيارات أخرى قادمة. وفى إحدى هذه الزيارات يجهز له الهدية المناسبة والمطلوبة.

يبدءون فى الكلام عن عنتر الثانى. أسأل وهل عرف عنتر الأول عنتر الثانى؟ خاصة أنهما من قرية صغيرة؟، يعرف أهلها كل واحد من سكانها؟ تزوغ الإجابات مع أنها جوهرية فى صلب الحكاية. أسمع الأمر ونقيضه، لكن من المؤكد أن العنترين قد عرفا بعضهما.

أما عنتر الثانى، فحكايته مختلفة. جاء إلى الحياة فى القرية الصغيرة نفسها، فلاح ابن فلاح. كان يقول دائمًا: فلاح صعيدى، لم يذهب إلى المدرسة، لم يتعلم فك الخط. من أيامه الأولى وهو لا يحب الكلام. ولكنه يفعل. يتصرف.

ذهب إلى البندر القريب، وفى الساحة الشعبية لاكم مصارعًا. وكانوا يقولون عنه الفلاح الذى فاز فى مسابقة كمال الأجسام. ولكنه عندما ذهب إلى الجيش حولوه إلى الأمن المركزى، حيث أثبت نفسه فى التدريبات وفى العمليات الميدانية.

بدا جنديا متميزاً، خرج إلى الشوارع واشتبك، وفض المظاهرات وحضر من مصر من عمل تحريات عنه، وصلت التحريات إلى عظام جدوده، التى أكلها التراب فى القبور. الأسئلة الكثيرة التى ألقيت عنه وعن تفكيره واتجاهاته وموقفه من الدين؛ جعلت الناس تقول إن عنتر سيصبح وزيراً.

وإن كانت الأسئلة لم تجد إجابات نهائية لها، ولكن الناس دهشوا لأنها تناولت أموراً معقدة. وقال الأهالى من جديد إن عنتر قادم.

وقد جاء عنتر فعلا إلى المحافظة. نقل إليها بدون واسطة ولا كروت توصية ولا خطابات لعلية القوم.

جاءت به، ومعه مجموعة أخرى سيارة حكومية. وفى إجازته الأولى جاء إلى قريته. سأله الناس عن الحكاية قال إنه أصبح من الآن من القوات الخاصة وهى أعلى قوات، ولا يصل إليها إلا عدد قليل جدًا من الجنود.

فى الوقت الذى كان الناس ينتظرون أن يكون مشغولا فى عمله الجديد، الذى لا يعرفون عنه أى شيء فوجئوا به يقضى كل وقته فى البلد، يتسكع يروح ويجيء، خلع الملابس التى تبدو مثل جلد الضفدع، وعاد إلى الجلابية الفلاحى.

قال لهم إنه سيبقى هنا يحصل على مرتبه ومزاياه ومعه كرنيه يركب به كل المواصلات دون أن يدفع مليمًا. ولن يذهب إلى العمل. كان الأمر صعبًا على الفهم. قال لهم:

ـ القوات الخاصة لا تعمل إلا فى الظروف الخاصة.

والظروف الخاصة كانت تستلزم شرحًا وتحليلا، وحكايات. الظروف الخاصة تعنى الأزمات، والأوقات العصيبة. وعندما لم يفهموا قال لهم:

ـ أيام الطوارئ؟!

قالوا: الحروب. تساءل بينه وبين نفسه، وهل فى الداخل حروب؟! غطس المعنى المترسب من السؤال فى روحه.

إلى أن جاء الاستدعاء، حضرت سيارة وأخذته، كان فى السيارة عدد آخر من المجندين. بعد سفره اشتعلت المحافظة، وجاءت الأخبار من البنادر القريبة، وتكلم الراديو ونشرت الصور للمرة الأولى.

قال الرواة إن هناك حمامات دماء. جماعات دينية هاجمت محلات صاغة، وأخذت ما فيها وباعوا الذهب لكى ينفقوا من ثمنه على الجهاد فى سبيل الدعوة. وقيل إن عدداً من الشباب، ذوى الذقون الطويلة، حاولوا القيام بانقلاب وإعلان جمهورية منفصلة عن الدولة، ولكن المحاولة أحبطت.

تختلف التفاصيل، وتتغير الحكايات، وإن كانت تتفق حول أمر واحد، أنها بدأت بعد سفر عنتر، كان استدعاؤه نقطة البدء فيما جرى. غاب عنتر ولم يعد، لم يرد اسمه لا فى نشرات الأخبار، ولم يدون فى الصحف.

قال البعض إن خطورة عنتر وأهمية دوره يفرضان عليه السرية، لن يظهر أبداً فى الصورة، ومع هذا فهو من الذين يحركون الخيوط الفعلية من خلف المسرح. لكن عنتر البقال هو الذى ظهرت أخباره. قالوا إنه كان واحداً من الشبان المتظاهرين وإنه استشهد فى إحدى هذه المظاهرات، وإن البندر الكبير كله حزين عليه.

جاء إلى الناس من قال إن الذى استشهد ليس هو الشيخ عنتر البقال، الأوصاف لا تنطبق عليه، وإن كان قد خرج كلام من البندر الكبير يقول إن عنتر كان بقالا، وإن محل بقالته خرجت منه المؤامرة،

وإنه متعلم أوقف تعليمه لينفق على العائلة، وإنه كان يعتكف فى المسجد، حتى الفجر، لم يكن ينام سوى ساعتين من بعد صلاة الفجر وحتى ذهابه إلى دكانه، ولم يكن ينام بعد الظهر، ولا يبدو عليه أى تعب، كان يطل من وجهه نور يراه المؤمن فقط.

اختلفت الروايات عن تحديد مكان استشهاده. وصلت إلى البندر ثلاث روايات: واحدة تقول إنه كان هناك هجوم على محلات الجواهرجية، لأخذ - وليس سرقة - الذهب الذى كان موجوداً فيها، وإنهم بعد الحصول على الذهب اصطدموا بالشرطة. واستشهد عنتر الذى كان يقود المجموعة، أما الباقون فقد تمكنوا من الهروب.

الرواية الثانية تقول إنه كان يقود مظاهرة داخل الحرم الجامعى؛ ولأنه كان فى المقدمة، فقد جرى الصدام الأول معه، واستشهد فى اللحظات الأولى.

الرواية الثالثة تؤكد أنه قاد الهجوم على مكمن الخصوم، واستشهد فى لحظات الهجوم الأولى، دائمًا اللحظات الأولى.

كانت القرية تتحدث عن الشهيد، وكانت الحكايات والتفاصيل والجزئيات تقترب من الأساطير، وكان الناس يصدقون كل ما يقال. إلا حكاية الأوصاف التى لا تنطبق على عنتر ابن القرية.

إلى أن ظهر عنتر الثانى، عنتر القوات الخاصة، كان شخصا آخر، لم يكن فى مجيئه هالة المرات السابقة، جاء فى سيارة قديمة، كان يجلس فى الصندوق الخلفى، وكان تحت حراسة مشددة، سلموه للعمدة. قالوا: حدث له لطف، ونظراً لخدماته الكثيرة للدولة،

لم يرسلوه إلى مستشفى المجاذيب، سيبقى هنا حتى يشفى، وإن تدهورت حالته، على العمدة أن يبلغهم فوراً.

كان الطلب الأساسى، الذى حرص عليه الذين أحضروه، هو ألا يتصل به أحد من أبناء البلد، والمستحيل أن يتصل به غريب عن البلد. تضايق العمده لأن الوضع كان غريبًا، والمطلوب منه لا يشكل تكليفًا قانونيًا، فعنتر ليس سجينًا، ولا تحت المراقبة.

قبل العمدة الأمر، وهل كان يستطيع أن يقول لا؟ تصور أن الأمر لن يطول، وعنتر الذى تجمعت البلدة كلها حوله قال للناس وهم يأخذونه إلى بيته:

- لقد قتلت نفسى.

وعجوز القرية المتعلم الذى يخطب خطبة الجمعة، ويؤم الناس فى الصلاة، قال تعليقًا على حكاية عنتر:

- ما طار طير وارتفع، إلا كما طار وقع.

كانت تعليمات عزله عن الناس صارمة. ومع هذا اتصل به الناس، جلسوا حوله وتكلموا معه، واستمعوا منه، قال لهم إنه قتل نفسه. نظروا لبعضهم وهم يقولون إن العقل زينة.

شرح لهم أنه عندما وقعت الأحداث الأخيرة. يسألونه عن هذه الأحداث الأخيرة. فيقول حكايات كثيرة غير مترابطة. جزء من حكاية يليه جزء من حكاية أخرى وهكذا.

يعود إلى حكاية القتل، ينظر إلى يديه. يقول إنه ضرب الشاب بالعصا التى كانت فى يده. سقط الشاب قتيلا، كان من المفروض أن

يضربه ضربة تسبب له حالة من الدوخة وغيابًا للوعى لفترة من الوقت. ولكن هذا ما حدث. قال إنه كان يقوم بواجبه وكان فى حالة دفاع مشروعة عن النفس. ولكنه عندما كان يستمع إلى قادته وهم يدونون تقريرًا بما حدث. استمع إلى اسم الضحية الأولى: قالوا، عنتر كامل مصطفى. وقف وصاح: هل قتلت نفسى؟!

هدأه الضابط، قال له إنه مجرد تشابه أسماء. إنه يقوم بعمل وطنى. ولكن الشاب الآخر كان متآمرًا، كان من العناصر المندسة، يكفى أنه كان فى الحرم الجامعى، وهو ليس من طلاب الجامعة.

ولكن عنتر جندى القوات الخاصة، بدأ رحلة البحث عن عنتر الضحية. وقف أمام دكانه المغلق والذى بدأ اليمام يعشش فى أركانه، ذهب إلى بيته، شاهد أفراد أسرته، رأى أخواته البنات اللاتى يبدين مثل اليمام فى البنانى. سأل عن موقفه من التجنيد. قالوا إنه معاف، عندما سأل عن تاريخ ميلاده. أصيب بحالة من الذهول كان هو نفس اليوم الذى ولد فيه. سأل نفسه:

- هل قتلت نفسى إذن؟!

تصور ضباطه أنها حالة نفسية تصيب جندى القوات الخاصة بعد الأحداث العنيفة التى مرت به. تصوروا أنه سيعود إلى حالته الطبيعية مرة أخرى. وأن الأمر يحتاج فقط إلى بعض الوقت، ولكن حالة عنتر كانت تزداد سوءًا.

تحدث عنتر طويلا عن اليمام، وعن البنانى، وعن الأطفال الصغار، وعن النور الذى كان يأتى من وجه عنتر الذى قتله. كان

ينظر إلى يديه. وكأنهما ليستا جزءاً منه، ينظر إليهما ويقول إن الدماء تقطر منهما.

تسلل الفزع إلى العمدة، عندما رفض عنتر تناول الطعام، لم يكن قادراً على استخدام يديه فى تناوله، لم يعد قادراً على الإمساك بالملعقة، فاضطر العمده أن يكلف خفيراً بأن يتولى إطعام عنتر.

ازدادت حالته سوءاً، تدهورت أكثر، أصبح لا يخرج من فمه سوى كلمات قليلة لا تشكل جملا. كأن يقول: النور، اليمام، اليتامى، ثم يكز على أسنانه: القتل. ويكررها أكثر من مرة. وكان القرار الأخير، عنتر لابد وأن يختفى عن الأنظار.

سافرت إلى قرية العنترين بحثا عن عنتر الثانى . . فعنتر الأول لم يعد له وجود. وإن كان المكتوب عنه فى أوراق الحكومة أنه هارب. شاهدت عنتر الثانى من بعيد، فوجدت بطل كمال الأجسام القديم، والملاكم الذى كان يمكنه هزيمة محمد على كلاى شخصيا، قد تحول إلى هيكل عظمى. أبرز ما شاهدته فى وجهه كان عظمتين بارزتين، ذقنه كانت طويلة، وبدا اللون الأبيض ينتشر فيها رغم صغر سنه.

عدت إلى البندر، يطاردنى سؤال، لم تكن عندى إجابة عنه. هل قابل عنتر البقال، عنتر العسكرى فى الأحداث التى يحكون عنها؟! كان اللقاء الأول القديم فى الحقول الخضراء، أما الثانى فقد كان فى ميدان القتال، قتالى محلى، العدو فيه من أبناء البلد؟! لا أعرف إن كانت هناك أهمية لهذه الحكاية. ولكنى كنت أريد أن أعرف فقط، هل تقابلا، وكانت بينهما عصا كهربائية غريبة بضربة واحدة منها أنهى عنتر الثانى حياة عنتر الأول.

١٠ـ الخــــط

أنا قطـــــر الصـــعيـــد

الـــــدم مش واحـــــد

والعـــــرق مش واحـــــد

والريحـــــة مش واحـــــدة

إلا فى قطـــــر الصـــعيـــد

فؤاد حداد

. . القطار لآخر مرة، اخترت الدرجة الثالثة، حتى أكون وسط الناس، الذين جئت إلى هنا من أجل الكتابة عنهم، عربات قطار شكلها عادى من الخارج، مثل أى عربات أخرى، ولكنها من الداخل تبدو وكأنها أول عربة قطار عرفتها البشرية فى أزمنة القطارات الأولى.

قلت لنفسى، أى خسارة أن يشغلونها مع أن مكانها الطبيعى هو متحف السكة الحديد؟

وهكذا أصبح القطار هو بيتى الجديد، حلى وترحالى. ليست هناك محطة أخيرة، ولكن ثمة محطات كثيرة بدون عدد، كان على التوقف فيها. وانتظار سماع جرس المحطة. مبانى محطات السكك الحديد. حقيبة السفر. رحلتى التى أصبحت سؤالا، والسؤال لم أجد له إجابة.

القطار له محطة، والمركب له مرسى، والسيارة تقف لمن يشاور لها. وأنا مازلت أتذكر بعقل شوشه الضباب، نقطة بدء هذه الرحلة. وإن كنت لم أعرف بعد أين تكمن محطة الوصول. ما أن أصل إلى محطة، أتصور أنها ختام الرحلة، حتى أكتشف أن هناك مشاوير لا بد من القيام بها، ورحلات جديدة لا بد من إتمامها، وهكذا أصبحت محطة وصولى سرابًا، مع أننى لست فى صحراء مترامية الأطراف،

ولا أركب جملا ولا أعانى من العطش الحارق، ولكن ها هو السراب يتجلى لى فى أى اتجاه أسير فيه.

أنا عائد إلى مصر، عائد إلى نقطة البدء. وفى رحلات العودة تختلط الأمور، تتداخل المشاعر والأحاسيس. أبحث عن نشوة العودة. عن الإحساس بدفء الأمان المستحيل، لأننى فى الطريق إلى البيت. يتوه كل هذا، فالتعب وصل إلى العظام. والعودة - دائمًا وأبدًا - هى وقت الإحساس المبالغ فيه بالتعب.

الجبل جبلان، جبل فى الغرب، يمكنكُ أن تراه بالعين المجردة، قمته هالة بيضاء، بياضها جميل، فى بياض قلوب الأطفال. أتساءل: هل وصل الثلج - الذى يغطى قمم الجبال عادة، إلى هنا؟! هل وجد الثلج وسط تلك الحرارة. وهذا الصهد الذى لا مثيل لهما؟! هل يمكن أن يوجد الثلج الحار؟ مع أن الثلج والحرارة متنافران؟!

الجبل الذى فى الشرق، افتراض فى الذهن أكثر من كونه حقيقة فى الواقع. ربما رأيت سلسلة أو أجزاء تشير إلى سلسلة جبال كانت هنا، تشكل بقايا جبل كان له وجود من قبل. ربما لو أنك سافرت بالطائرة لرأيت ما يشير إلى هذه السلسلة، والطائرة ترف لا أقدر عليه، وأقصى ما أطمح إليه هو القطار.

أرى من نافذة القطار شخصًا يحمل بندقية فى عز النهار، والبنادق أنواع وأشكال: بندقية بروح واحدة، وبندقية بروحين، ولكل بندقية سعرها، والبندقية أم روحين تسعف صاحبها أسرع من البندقية أم روح واحدة.

فدان من وراء فدان، تتم إزالة القصب من الحقول، وبعد الإزالة يأتى الحريق، حتى لا ينبت القصب مرة أخرى، ولا يبقى فى الأرض ـ فى النهاية ـ سوى الرماد. ويبدو الأفق لوحة من الدخان، فى المسافة التى تفصل بين الجبل الغربى الذى أراه بأم عينى، والجبل الشرقى الذى أفترض وجوده فى خيالى، وتتعذر الرؤيا كلما صعد الدخان من الأرض متجها نحو السماء.

فى النهار للصعيد باب واحد، وللصعيدى وجه واحد، ولكن، فى الليل للصعيد ألف باب وللصعيدى ألف وجه. فى الليل ترى الضباب، ضباب البلاد البعيدة التى تخرج أرضها من جوفها حرارة النهار الذى مضى، ووقيده. وينزل الضباب الليلى لكى يتشرب هذه الحرارة.

تبدو السماء صافية، كأن يدًا قد امتدت ومسحت بقطعة من القماش كل السحب المتناثرة على صفحة السماء. ولم تترك سحابة واحدة دون أن تنظف منها صفحة السماء.

الأمر الوحيد الذى جعلنى سعيدًا برغم إرهاق رحلة العودة، أن النافذة التى جلست بجوارها. كانت بدون زجاج، ولذلك فإن المقعد المجاور للكرسى كان خاليًا. عرف الركاب أننى غريب، أشاروا إلى الهواء وإلى صدرى، لم أهتم.

قالوا إن الخطر الصحى مؤكد، فلم أستمع. نصحنى شاب متعلم أن أضع الجريدة التى فى يدى، ولا أقرأ فيها تحت القميص، فتحمى صدرى من تيارات الهواء. فقلت له عندما يأتى الهواء ويمرض صدرى، يفرجها من لا يغفل ولا ينام.

كان وداعى لفرج مؤثرا، أو لأكن دقيقًا وأقول إن وداعه هو لى الذى كان مؤثرًا لحد اللوعة، لم يصدق أننى سأمشى وأن أيامى عندهم قد انتهت، كان يرى أننى لم أفعل أى شىء. لم أقابل الحرمة التى قتلت زوجها وعشيقها بمساعدة العفاريت والجان، فهى امرأة ساحرة تمارس السحر منذ أن جاءت من مصر، ولهذا كانت منقطعة عن الناس، حتى لا يكتشف أحد سرها ويبلغ البوليس عنها، حتى يبطلوا مفعول سحرها.

هذه المرأة التى جئت من مصر من أجلها خصيصًا وبالعنية، لم أستطع مقابلتها، لم يوافق لى البيه وكيل النيابة أو رئيسها، ولم يسهل لى ذلك حضرة الضابط. كان فرج متأكدًا أن السبب الحقيقى فى تعثر مهمتى أنهم - وكيل النيابة أو رئيسها وحضرة المأمور - لا يحضرون إلى النادى.

لو كانوا من زبائن النادى لخلَّص لى فرج الموضوع كله والحكاية والرواية. ولكنت قد قابلت الحرمة «قتالة القتلة» وشبعت من لقائها. على أن رحلتى لا تساوى تكلفتها، من وجهة نظره، لأننى أسافر دون أن أنتظر مقابلة الخط. «بضمة على الخاء أحيانا وفى أحيان أخرى بكسرة تحت الخاء». هكذا تصل الحيرة فى نطق اسمه إلى الصعيد. قلت له وهل كان هناك موعد معه ورفضت المقابلة؟ واجهنى فرج بالحقيقة التى يؤمن بها. اتهمنى أننى خفت من مقابلة الخط. قلت له إننى خفت فعلا. لن أكذب وأنفى هذا. أمى علمتنى أن من خاف سلم. وأن الخوف غريزة أساسية فى طباع الإنسان. ولكن لو كان هناك موعد فإن الأمر كان يستحق المجازفة والمغامرة.

كان فرج متأكدا، كان عنده يقين لا يقبل المنافشة، يقين لا بد وأن يحسده الإنسان عليه، بعد أن فقدنا كل يقين فى حياتنا. كان يقينه يقول له إن الخط مازال حيا، قلت له إن كانت هذه الفرضية صحيحة فمعنى هذا أن يكون الخط فى الثمانين من العمر. أكد لى أنه صبى فى عز شبابه.

سألته: هل رأيت الخط؟ قال لى إن الكذب خيبة، ولكنه سمع من الذين رأوه بأنفسهم ومنهم ناس لا يملك سوى أن يصدقهم. كل مساء كان يقول لى إن الموعد سيتحدد عند انتصاف الليل، وإن لم يكن يعرف السبب فى تحديد الموعد لحظة انتصاف الليل.

لم يكن قد سمع عن فيلم الوحش، ولم يشاهده، وهو الفيلم الذى أخرجه صلاح أبو سيف عن حكاية الخط. ولم يكن يعرف أى شىء عن حكاية الخط، وحتى عندما سألته هل يعتبر الخط قاطع طريق أو مصلحًا اجتماعيًا يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء؟ لم يتمكن من الإجابة عن السؤال الذى أشك أنه فهمه أصلاً.

ولكن فرج كان يتخندق وراء فكرة شائعة، هى أنه لو كان الخط موجودًا فى الصعيد، هذه الأيام ما جرى للناس ما يجرى لهم من الأهوال والمهانات والغرائب، كنت أواجهه مادام غياب الخط هو السبب فيما يجرى كيف سأقابله إذن؟ كان يقول لى إن الخط موجود ولكنه يحضر عندما يريد. ويتبخر فى الهواء عندما يرغب فى ذلك. كان فرج يقول لى باقتناع حقيقى إنه ربما كان الخط يسمعنا ونحن نتكلم عنه.

سافرت بعد اتفاق شرف معه، «وبكلمة رجالة» أقسمت أن أحافظ

عليها. إن فرج عندما يعرف الموعد ويتحدد بشكل نهائى، سيتصل بى تليفونيا. كنت قد شرحت له أدوات الحضارة الحديثة وأدوات الاتصال التى سهلت الكثير من الأمور. وأننى سأحضر فوراً وقبل الموعد.

عندما تشكك فرج فى كلامى، وبدا عليه أنه لم يصدقه، قلت له إنه مثلما يوجد اختراع اسمه التليفون لكى يتكلم فيه الناس عن بعد، هناك اختراع أيضًا اسمه الطائرة. قال لى إنه يراها فى سماء الله العالية عندما تعبر فوق البلد فى الليل.

قلت له إننى يمكننى الحضور بها إلى الأقصر بعد نصف ساعة طيران، ومن الأقصر أحضر إلى البدارى، عندما عرضت عليه أموالا، حتى يدفع منها للسنترال من أجل الاتصال بى، شعر بأننى أهنته، ضرب بيده على جيب الصديرى الذى يعلو صدره، وقال لى إن الجيب عمران.

وأنا لم أكن أرغب فى تقديم فلوس له، بقدر ما كنت أرغب فى أن أبدو أمامه مصدقًا لقصة لقائى مع الخط، وأننى أعتبر هذا اللقاء أهم خبطة صحفية فى حياتى كلها. نظرت من النافذة، الصخب الآتى من الخارج أسمعه كما لو كنت أجرى بجوار القطار. اصطدام الحديد بالحديد يتم فى إيقاع رتيب، لحظة انتقال القطار من خط إلى خط. الصوت القوى المميز لهذه العملية ينتقل من عربة لأخرى.

يأتى دور العربة التى أجلس فيها، تهتز، تروح وتجىء، توشك أن تنقلب. تجرى الأشياء إلى الخلف. تهجم علىَّ من الأمام ثم نعبرها بسرعة، أعمدة التليفون، الحقول، الناس، البيوت المتناثرة، الخضرة

الممتدة فى تماوج جميل، ثم الرمال بعدها، بحر من الرمال، تنتهى بجبل عال. يصل المسافة بين الأرض والسماء.

بالقرب من القطار، طريق أسفلتى صغير ضيق ومحدود، تجرى فيه السيارات بسرعة، لكن القطار يعبر البعض منها، والقليل جداً من السيارات تسبق القطار. الطريق مزدوج. لحظة التقاء سيارتان تتوقف الأنفاس، يمنحك منظرهما قبل لحظة اللقاء الإحساس بأنهما لا بد سيصطدمان صداماً مروعاً، تروح ضحيته أكثر من سيارة بركابها، ويصل عدد القتلى إلى ما يقارب عدد شهداء معركة مع العدو الإسرائيلى.

فى داخل عربة القطار، الباعة أكثر من الركاب، باعة لب، باعة سودانى، باعة سميط وبيض، والدقة والجبنة الرومى، شرائح رقيقة فى مثل رفع ورقة السيجارة، يمكنك رؤية الجالس أمامك من خلالها.

يمسك شاب بورقة الجبنة الرومى، ينظر من خلالها ويقول متضاحكاً:

ـ هل أعملها نظارة معظمة بدلا من أكلها؟!

الشاى، أكواب كثيرة، مملوءة بشاى ثقيل سميك فى لون الحبر، وفى سمك البوظة، والسكر كثير، محلول يتحرك بصعوبة فى قاع الكوب. على يد بائع الشاى اليسرى صينية وفى يده براد شاى. والأكواب الفارغة، المغسولة نصف غسيل فقط، موضوعة فى حزام يلف حول وسطه. الشاى موجود ولكن المشكلة فى كوب الماء، من الصعب أن تجده، الحل أن يكون معك كوب فارغ وتذهب لتملأه من دورة المياه، أقصد حنفية دورة المياه.

حولك مسافرون من نوع لم تره من قبل. عائلات بأكملها، الأب لأم والأولاد ومعهم بعض الأثاث القليل، ربما كان كل ما يملكونه، جتمع بأكمله يتحرك، ينتقل من مكان إلى آخر، يرحل فى الزمان ,المكان حاملا معه كل ما يملكه فى هذه الرحلة العجيبة.

القاهرة أخيراً، القاهرة، مدينة الأزمنة المتجاورة، تتركها أياماً وتعود إليها، تتحداك أزلتيها. واستمرار كل ما فيها. أتمنى أن أنظر إليها، وأعماقى تهتف، ما أكثر ما تغيرت يا مدينة الألف مئذنة والألف وجه، ولكنه التغيير من خلال الاستمرار.

كان مدير التحرير فى مكتبه. كان يبدو كما تركته قبل عشرة أيام، نفس الجلسة، صخب التليفونات المتشابكة يحيط به من كل جانب. والدخان الذى يملأ جو المكتب، والأوراق المبعثرة التى أمامه، وكثير من أصحاب الحاجات يزحمون مكتبه.

كان يتحدث مع الجميع فى وقت واحد، ونفس المرأة التى كانت تجلس هنا عندما سافرت، تجلس نفس جلستها، لم يتغير فيها سوى شعرها المستعار وفستانها الذى تلبسه.

انتظرت واقفًا فى ركن صغير من المكتب، لعله ينتهى من هذا الزحام، ولكنى اكتشفت أننى قد أقف هنا حتى آخر اليوم. قررت أن أندس بين الحاضرين، وأن أحاول الكلام، كنت قد عدت من رحلتى مساء الأمس متحمسًا ومكسوراً فى وقت واحد. قلت لنفسى: إن تمكنت من الكتابة عما رأيته. لاعتبرت نفسى فعلت شيئًا. ولكن حتى هذا الحد الأدنى. هل أتمكن من القيام به؟! تلك هى مشكلتنا نحن الصحفيين، مؤرخى اللحظة الراهنة.

كنت متوترًا، من الصعب أن يكتب الإنسان بأعصاب باردة عن موضوع ملتهب. كان الصعيد الذى عدت منه قد عدانى، وكانت عندى قابلية للعدوى واستعداد لها، كانت العدوى اللذيذة من وجهة نظرى.

أخيرًا رآنى، ركن خده على يده، خده الأيمن على يده اليمنى، وسألنى:

ـ سبع أم ضبع؟!

مهزوما كنت، والجرح وصل حتى إلى نخاع العظام، ولكنى ألصقت على وجهى ابتسامة، وقلت:

ـ فعلت الكثير.

سألنى:

ـ كتبت؟!

أشرت إلى ملابسى:

ـ غبار السفر مازال على ملابسى.

تساءل ضاحكًا، وهل جئت من محطة الصعيد إلى المؤسسة رأسًا؟ لا بد وأنك ذهبت إلى منزلك، وأكلت ونمت ووقفت طويلاً فى الحمام تغنى «محلاها عيشة الفلاح متهنى قلبه ومرتاح». لست متأكدًا الآن إن كان عبد الوهاب قد قال إن الفلاح متهنى قلبه أو باله. وهل تفرق؟!

كـان استـرسـاله فى الكلام يشى بحـالة من حـالات السـعـادة التى جاوزت حدودها .

قلت لنفسى ، لأحاول إخراجه من سحر البرجوازية الخفى الذى يعوم فيه ، لأقلقه ، لأسحبه من هذا العالم الأثيرى الذى يعيش فيه . مع أنه يتفاخر فى لحظات الفخار ـ وما أكثرها ـ أنه صعيدى ، جاء من الصعيد الجوانى .

سـألنى : مـتى أكـتب؟! قلت إننى جئت من أجل الاتفـاق قـبل الكتابة ، بدلا من أن أكتب وتصبح الكتابة جهدًا ضائعًا . اعترض على طريقتى فى التعامل معه . طلب منى الكتابة أولاً ، وبعد ذلك يصبح بيننا الورق ونتكلم . أما الكلام فى الهواء هكذا فلا يقدم ولا يؤخر . وأنا قلت إننى أريد مجرد الضوء الأخضر قبل الكتابة حتى يكون هناك ضمان بالنشر . قال لى إنه هو ليس صاحب الكلمة الأخيرة ، مازال فوقه رئيس التحرير ، القادم من مؤسسة أخرى ، والذى لا يعد ابن الدار ولا أحد يعرف فى أى الأمور يفكر ، فكيف نعرف ما يدور فى ذهنه؟!

راح بنا الكلام وجاء ، وأخيرًا قبل أن يعطينى دقائق قليلة ، يستمع إلىَّ فيها . اشترط أن أقول عنوان الموضوع وأن ألخصه فى أربع كلمات فقط . عندما بان الانزعاج على وجهى ، قال لى :

ـ خمس دقائق لكل موضوع . افرح يا فنان . أوكازيون وقت اليوم .

كان يتصفح ورقًا موضوعًا أمامه . وقد أعطى صور الموضوع

للفاتنة الجالسة فى مكتبه لكى تتفرج عليها، وتقول رأيها فيها. كان وجود هذه المرأة يشكل لى عذابًا، ترانى وأنا لست فى أسعد حالاتى. توقفت عن الكلام سألنى:

- هل أنستك أيام الصعيد ولياليه أننى أفعل أمرين فى وقت واحد؟!

لم أكن موافقًا على الكلام وهو يعمل. قال لى:

- أنت حر، أمامى نصف ساعة فقط، وعندى دعوة على الغذاء. أنا وكليوباترا موديل آخر السبعينيات من القرن العشرين.

قال هذا وأشار للفاتنة الجالسة فى مكتبه. تضع ساقًا على ساق، وتمص السيجارة بدلا من أن تشربها.

لم يعد أمامى مفر من الحديث هكذا وأمرى لله:

- المرأة التى قتلت زوجها وعشيقها فى لحظة واحدة.

قال:

- غيره.

أشار إلى المرأة الجالسة فى مكتبه يستشهد بها. ذكرنى أننا اتفقنا على هذا الموضوع من قبل، وأن هذا الموضوع كان الأساس فى السفرية كلها.

قال:

- اسألك عن الجديد فى الرحلة.

أشار إلى رأسه. قال إن ذاكرته حديدية.

قلت :

ـ ظهور جمال عبد الناصر بنفسه . بلحمه وشحمه فى قرية الترامسة القريبة من مدينة قنا ، عاصمة المحافظة التى تحمل اسمها .

ـ غيره .

ـ لم أسمع رأيك فى الفكرة .

أكملت :

ـ ما فعلته الشرطة بالناس عند جمع السلاح .

أشار لى بيده ، بنفاذ صبر :

ـ اقلب الصفحات وتكلم .

قلت :

ـ إسرائيليان : أحدهما يبحث عن تمثال نادر لأجمل ملكات مصر ـ «قلت هذا وأنا أنظر إلى المرأة الجالسة لعلها تدرك المغزى ، وتفهم الرسالة» ـ والإسرائيلى الثانى يطلب امرأة صعيدية .

وضع يده حول أذنه :

ـ ماذا ، قل مرة أخرى؟!

أعدت قول ما سبق . سألنى :

ـ ما هذا؟!

ـ موضوع .

سألنى:

ـ ضمن الرحلة؟!

ـ نعم.

قال ضاحكًا. وبرغم بدانته الشديدة، كان يتمتع بخفة ظل، كما كان يعجب بكل من يمارس الفساد، وينفر من أى شخص نظيف، كان جزءاً من الزمن الذى هل على بر مصر.

قال ضاحكًا:

ـ لا يلزمنى.

أشار بيده يطلب المزيد قائلاً:

ـ عندنا الكثير من هذا الصنف.

لم أتكلم. قال:

ـ غيره.

ـ أقوى جنود الصعيد يصاب بلوثة عقلية.

سألنى:

ـ ما الجديد؟ نصف الناس تكلم نفسها فى الشوارع، هنا فى قلب القاهرة فما بالك بالصعيد الجوانى؟

لم أكن راغبًا فى إكمال ما عندى، على الأقل فى حضور هذه المرأة، وهو يتباهى بالسلطة أمامها، ولكنى لا أستطيع إخراجها من

المكتب. كان متخندقًا وراء سلطته الطاووسية، وكان يكلمنى وينظر إليها، كما لو كان يكلمها هى، وكان هو مصراً على إكمال المشهد حتى نهايته الطبيعية.

قلت:

- كتيبة الإعدام، كان هذا هو العنوان أما التفاصيل، فكانت أن مجموعة من الإرهابيين، ارتدوا ملابس الجنود، وركبوا القطار، وأوقفوه، وأنزلوا منه رجال الشرطة والأغنياء من الصعايدة، وتغافلوا عن السياح باعتبارهم غرباء عن بر مصر.

تساءل فى دهشة مصطنعة، بها قدر من التمثيل، مقلداً يوسف وهبى فى كلمته الشهيرة.

- يا للهول.

- نقطة تفتيش مزيفة. إيقاف المينى باص. قتل رجال الشرطة العائدين من الوردية الليلية والنوم يداعب جفونهم، وهروب الشاهد الذى كان يجلس فى المقعد الخلفى مع أنه كان الوحيد المسلح فى ذلك الوقت.

أكمل كلامى:

- لماذا لم تقل إن هذا الشاهد حوكم وجرد من رتبته بتهمة الهروب من المواجهة فى الميدان؟!

قلت له:

- هذه تفاصيل.

أصـــر :

ـ بل جوهر الجوهر .

ـ أخذ الأهالى رهائن من أجل القبض على أبنائهم .

كان قد توقف عن إبداء الملاحظات على أفكارى .

أكملت :

ـ خطة كاملة للتخلص من زراعات القصب فى الصعيد . موضوع تحت عنوان : الإرهاب والقصب .

قال لى بعد فتره من الصمت :

ـ احتفظ بهذه الجواهر لنفسك .

لم أفهم .

ـ بعد عمر طويل إن شاء الرب تكتبها فى مذكراتك .

أخذت كلامه على أنه مزاح من النوع الثقيل . وبان الغضب على وجهى .

قال لى :

ـ أفكار غريبة ، كتبت كلها من قبل .

سألته :

ـ كيف؟ هناك ما يحدث فى مصر للمرة الأولى مثل وجود الإسرائيليين فى الصعيد .

قال لى :

ـ مشكلتك أنك لا تقرأ ما أكتبه عن الصعيد .

ران بيننا صمت مشحون، سألنى :

ـ هل انتهى ما كان فى جراب الحاوى؟

بدون حماس بدأت أتكلم عن آخر ما صادفنى، ولم أجد فى نفسى الحماس من أجل الذهاب لتحقيقه، ذلك أن رائحة الجنس كانت تفوح من الحكاية، مقدمة توابل حريفة لبعض صناع الصحافة التى كانت على أعتاب زمن الإثارة .

قلت :

ـ صعيديات يغتصبن غريبا . الاغتصاب يستمر حتى وفاته، أو قتله .

أكمل الجملة منتشيا .

ـ أو استشهاده . وهل خلت البلد من الرجال؟!

قلت له . .

ـ المرأة التى بدأت الاغتصاب اسمها قمرية، والقرية لم يكن فيها رجل وحيد، كل الرجال سافروا .

انتبه فجأة، ترك الورق الذى كان بيده، ووضع سماعة التليفون التى كان ينصت لها دون أن يتكلم، وكان قد سندها تحت لغده وفوق كتفه، لأن يديه كانتا مشغولتين عن آخرهما .

قال لى بابتسامة، كانت هى الأولى من نوعها، منذ أن بدأنا هذه المباراة:

ـ تركت الأمور والحكايات المثيرة حتى الآخر، عموما يقولون: وختامه مسك. نحن نأكل الحلوى بعد أن نشبع.

بدأ يتحدث عن هذه الحكاية:

ـ أول الرحلة امرأة قاتلة، وآخرها أنثى تغتصب رجلا، ماذا قلت عن اسمها؟!

ـ قمــريـة.

وصلت سعادته إلى ذروتها. قمرية مؤنث قمر، وتغتصب رجلا. إن الواقع أصبح يفوق أى خيال. وذلك من حجم الحريات الواسعة وغير المحدودة التى توجد فى الواقع الآن. قال لى إنه يفرق بين الواقعة الأولى. والواقعة الأخيرة. قال إن الاغتصاب النسائى، عندما تكون المرأة هى المغتصبة ـ «بكسر الصاد وليس بفتحها» ـ يصبح الأمر أكثر إثارة، إنه يضاعف توزيع المجلة، خاصة إن نشرت الحادثة بصورة مسلسلة. خمسون حلقة على مدى خمسين أسبوعًا، أى حوالى اثنى عشر شهرًا، أى سنة كاملة. حول. نطقها بالعربية الفصحى مقلدًا من يحرصون على نطق العربية سليما، والذين كان يسميهم الدراعمة.

توقف وسألنى:

ـ قمرية اسم مسلمة أو مسيحية.

قلت له صادقًا إننى لا أعرف، كان مسيحيًا متعصبًا لكل ما هو مسيحى. وحاول أن يبدو غير مهتم بهذه الحكاية، مع أنها كانت جوهر اهتمامه. قال لى إنه فضلا عن النشر المسلسل فى المجلة، فإن هذه الحكاية يمكن إنتاجها فيلمًا.

قال لى إن الإنتاج السينمائى تقوم به النساء، وجميع السيناريوهات يتم تفصيلها من أجلهن، وعندما يدخل الرجال ميدان الإنتاج السينمائى، فإن ذلك يكون من أجل عيون ممثلة يعشقها المنتج، ولذلك يبحث عن قصة مفصلة من أجلها. قال لى إن القصة مضمونة النجاح. مسلسل يتحول إلى فيلم وينشر على شكل كتاب، ولى نصف العائد والنصف الآخر يذهب إلى خزينة المؤسسة. إنه من حقه هو، فهو الذى فتح لى كل هذه الأبواب بخبرته الثمينة التى لا تقدر بمال، ومع هذا هو متنازل للمؤسسة.

طلب منى الاهتمام بكل ما هو مثير، سألنى إن كانت معى صورة لقمرية - كان قد حفظ اسمها - قمرية التى كانت لديها الشجاعة لتبدأ حفل الاغتصاب الجماعى لرجل، تقوم به نساء محرومات حتى من رائحة الرجال، وإن كنت قد أحضرت معى تسجيلا بصوتها، يمكن طبعه على شريط كاسيت، أول امرأة فى التاريخ تغتصب رجلا(*).

بدأت أفكر فى الانصراف، أحسست بحالة من الملل، وإن كان مدير التحرير قد وصل إلى ما بعد النشوة، كانت الكلمات تشتعل من

(*) قلت لا يمكننى كتابة هذه الحكاية. قرأت بعد ذلك قصة لجارثيا ماركيز عنوانها: أجمل الرجال الغرقى فى العالم، تعتمد على نفس الوقائع، توارد خواطر بين من قال لى الحكاية، أو هى مجرد صدفة؟!

بعضها وهو يتكلم، تأتى الكلمة فتزيد حالته اشتعالاً ووجدا وهياجا. ربما كان يربط فى عقله الباطن بين المرأة الجالسة فى مكتبه - تمثال من الجمال الشمعي - وبين المرأة الصعيدية التى اغتصبت الرجل الغريب. حاول أن يجسد الرجل المغتصب - «بفتح الصاد» - ولكنى ذكرته أنه مات من الاغتصاب. قال:

- إنه أجمل موت. الموت اللذيذ. الموت الجميل.

كان يوشك أن يرقص وهو يتكلم.

أخرج أجندة تليفوناته، بدأ ينقل أسماء الممثلات اللاتى يعرفهن ويدرك أنهن يجرين وراء مثل هذا الدور، وينقل أرقام تليفوناتهن. قدم لى الورقة وقال إننى قد أحتاجها فى المستقبل المشرق والمزدهر الذى ينتظرنى.

وقف فى مكانه، فوقع الكرسى الذى كان يجلس عليه، مد لى يده، تحدث مرة أخرى وهو يصافحنى، هز يدى بقوة. قال لى يبدو أننى رأيت ليلة القدر فى الصعيد دون أن أدرى. قال واحد من الواقفين:

- ولكنه لم يسافر إلى الصعيد فى رمضان.

ضحك الرجل:

- ليلة قدر قطاع خاص.

خرجت من مكتبه وأنا أرفض فى داخلى هذا الذى يدعونى إليه. كان من الصعب على وصف دهشتى من موقفه من الحكاية الأخيرة

التى قلتها له من باب سد الخانة أو إبراء الذمة، لكن لم تكن عندى أى تفاصيل لها، ولا نية للدخول فى عالمها، ومع هذا حدثت له حالة من الهستيريا عندما سمعها.

ولكن رسائل أصدقائى الجدد من الصعايدة لم تنقطع عنى، لا يمر أسبوع دون أن تصلنى رسائل، أهمها كانت الرسالة من العسكرى الذى تركته محبوسًا فى موضوع الإسرائيليين، كانت رسالة منه تتكلم عن شجرة العائلة التى تعود إلى القبيلة التى ننتمى إليها - أنا وهو - وحضورها إلى مصر مع الفتح العربى لمصر مع جيش عمرو بن العاص، ولكن كان للقبيلة طريقًا آخر، يمر عبر الصعيد، مع أنها جاءت فى نفس الوقت الذى جاء فيه عمرو بن العاص وجيشه.

تحركت القبيلة من شبه الجزيرة العربية. عبرت من بحر الرمال إلى البحر المالح، البحر الأحمر المالح، حتى وصلت إلى الشواطئ المصرية، يؤكد لى فى الرسالة أنها جاءت إلى سفاجة، ومنها عبرت بحر الرمال إلى قنا واستقرت فيها.

جاء الأبناء بعد ذلك، كبروا ورحلوا، واحد منهم هج وطفش إلى بحرى وهناك أسس العائلة الذى أنتمى إليها أنا، وإن كان الأصل قد بقى حيث هو. فى آخر رسالته رسم رسمًا، شجرة العائلة، ابتداء من الجد الأكبر وحتى الوصول إلينا. وملحق بالرسالة خريطة وعلى الخريطة أسهم كثيرة، تشير إلى مراحل تاريخ العائلة واتجاهاتها.

كنت محتارًا، هل أجارى هذا الرجل فى أوهامه؟ أم أنه من الأفضل لى وله أن نتصارح ذات يوم؟ مهما كانت المصارحة صعبة. كنت أؤجل لحظة المصارحة، لأننى تصورت أن هذا الإنسان لا بد وأن

ينسى الحكاية وما فيها ذات لحظة، ولا بد وأن مشاغل الحياة ستأخذه بعيداً عن هذه الحكاية.

ولكنى ذهبت ذات صباح إلى مكتبى، كنت مجهداً ومتعبًا. فإذا بتلغراف مرسل إلىَّ من الأقصر، وكعادتى قرأت اسم المرسل أولاً ووضعته بجوارى، وأنا أتعجب من قدرة هذا الإنسان على المتابعة والتصميم على الوصول إلى آخر الطريق.

نظرت بعد قليل إلى مكتبى، فوجدت البرقية فى نفس المكان الذى تركتها فيه، عدت لقراءتها من جديد، يقول لى إنه سيحضر إلىَّ فى مصر أم الدنيا غداً، وكان هذا الغد، هو اليوم الذى وصلتنى فيه البرقية، وسيحل ضيفًا علىَّ أسبوعًا فى المحروسة مصر أم الدنيا.

طويت البرقية وأنا أقول لنفسى إنه من السهل أن نبدأ القصص والحكايات. ومن السهل أن نمضى فيها، ولكن الصعب الحقيقى هو الخروج منها.

قرأت فى إحدى صحف المعارضة عن حملات الأمن المركزى، واستنكار مجلس محلى الحراجية لها، وقد ارتفعت معنوياتى كثيراً، وشعرت بحالة من العجز ولكن كان العزاء أنه كان هناك غيرى يفعل ما لم أتمكن من القيام به.

بعد يومين من نشر الخبر فى الصحيفة الحزبية المعارضة، فوجئت بإعلان مدفوع فى جريدة قومية يشكر فيه أهالى الحراجية المسئولين على جهودهم من الحملة القومية لجمع السلاح من صعيد مصر.

لم أكن فى حاجة إلى تفكير طويل لكى أدرك ما حدث، لقد دفع

الناس إلى استنكار ما كتب عنهم بصدق، ويقولوا إنه كذب. عرفت فيما بعد أنه كانت هناك حملة جديدة ليست من أجل جمع السلاح من الناس، ولكن لجمع الأموال لعمل هذا التكذيب فى الصحيفة القومية، كان التكذيب الذى أخذ شكل الشكر يحتل صفحة كاملة، وأنا أعرف المبلغ المدفوع ولو كانت هذه المعرفة بالتقريب.

قلت لنفسى وأنا أتذوق الألم تحت أضراسى:

ـ لا فائدة.

يبدو أن هذه الكلمة اختراع مصرى فقط.

وعلى البعد، كانت البلاد مازالت يغطيها الذباب، كانت بلاد التيه وديار الهو، حيث الصعيد الجوانى، فى انتظار معجزة ما.

عدت وما عدت، جسدى فى القاهرة ولكن قلبى منقوع فى الصعيد، فى الليل أعوم فى فراغ مرهق، وفى النهار أدور حول نفسى، لا أعرف ماذا أفعل بالتحديد. كان لدى إحساس أننى لن أتمكن من نشر ما عدت به، ما رأيته من عذاب وتذوقته ولمسته بيدى، وكنت أخوض فيه على مدى عشرة أيام مضت.

لن أمكن مدير التحرير مما يريده منى، لن أرسم صورة لامرأة البداية، وامرأة النهاية حتى أقدم له ملحمة من الإثارة وأشارك فى تلطيخ أيامى بحبر زماننا الكاذب كفى كذبًا. كفى تلفيقًا. سأبتعد عن مشهيات الإثارة.

إما أن أكتب ما أعتقد أنه الصواب والحق والعدل، وإلا سأحول هذه الأوراق إلى خزانتى الخاصة، حيث أحفظ أحلامى المجهضة،

ربما يأتى يوم أتمكن فيه من قول ما أريد قوله عما رأيته هناك، كنت مشنوقًا على حبال العجز.

هل ما أمر به إحباط؟! ربما كان أكبر من كلمة عجز وأعمق من هزيمة، مهزوم أنا حتى نخاع عظامى، عندما سافرت كنت أنظر إلى الأمور نظرة أقل مأساوية من الآن، قلت لنفسى. ما أقوله عندما أجد نفسى عند الضفة الأخرى لليأس، اشتدى يا أزمة تنفرجى، قد آذن فجرك بالبلج.

سافرت وأنا أتصور أننى على حق، وعدت لأجد أن كل الألوان أصبحت سوداء، وأن جميع الطرق قد أغلقت فى وجهى، والأفق الذى كان ممتدا أمامى لن يوصلنى إلا إلى السراب. مهموم أنا، أعيش حالة ضيق المرأة الحامل التى أتاها الطلق، ولا يلوح أمامها أمل فى وضع مولودها.

رأيت نفسى مثل إنسان سعيد بحياته، يستعد لبدء سهرة جميلة فى ليل القاهرة المتلألأ بجميع ألوان البهجة. ألبس أفضل ما عندى، أقف أمام المرآة. أطل على نفسى، ونفسى تطل على. أسأل هذا الذى يقف أمامى: من أنت فيهم بالتحديد؟! لا أعرف من أنا وسط الذين أمثل أدوارهم. وعندما أخرج من حصنى الذى هو بيتى، يستباح كل ما فى حياتى من لحظة الخروج وحتى وقت العودة.

فى ذلك المساء، احترت إلى أين أذهب؟ استعرضت كل الإمكانيات، تذكرت ما فى جيبى من النقود القليلة، فقررت البقاء فى البيت، قلت لنفسى بيتك حصانك إن صنته صانك، وإن خنته بهدلك وخانك. خفت إن خلعت ملابسى وروضت نفسى على البقاء فى

البيت. وفلسفت الأمر أننى بذلك أصون وحدتى وأرعى فرديتى، بعيداً عن الانتهاكات التى تملأ الشوارع، ستطل أكاذيبى فى وجهى، تفسد على متعتى الوهمية، لذلك خفت من فكرة البقاء فى البيت.

استهولت اكتئاب الليل القادم الذى لا أعرف كيف أقضيه فى هذه الظروف. وصلت إلى الحل الوسط، لماذا لا أتمشى فى المربع المحيط ببيتى. وأعود إلى المنزل. أفعل مثل هؤلاء الذين يتناولون من الطعام أكثر مما يحتاجون، ثم يعلنون عن رغبتهم فى التخلص من الأوزان الزائدة.

فى الليل كان النوم صعبًا، جاءتنى لحيظات متقطعة منه، طاردتنى وجوه الصعيد، سألتنى عما فعلته لها. الغريب أننى فكرت فى جميع الاحتمالات وأنا هناك إلا احتمال عدم النشر. احتباس الرسالة وعدم وصولها. كنت أمشى هناك منفوخًا بذلك الوهم الكاذب الذى يملأ حياتى. كان الموضوع ينمو ويكبر بداخلى. لدرجة ما قبل الانفجار وأنا لا أعرف ماذا سأفعل به.

قبيل الفجر، وقد عرفت أنه الفجر من حصار الميكروفونات التى لا مهرب منها، المصوبة نحو شقتى بصورة متعمدة. قبيل الفجر جاءنى فى المنام، الشكل الخارجى لرجل صعيدى تقليدى، الجلباب والصديرى واللاسة الملفوفة حول الرأس والشارب المنمق.

كان دقيق الحجم قصير ورفيع، والبندقية المعلقة فى كتفه الأيمن والتى يمسك سيرها بيده اليمنى، كانت أطول وأبرز ما فيه. كنت أراه ولا أرى نفسى، أعرف موقعه ولا أدرك أين أنا من تكوينات الصورة التى كانت بالأبيض والأسود. والصعيد كله كان يترامى وراءه.

سألنى :

- لماذا لم تصدق فرج؟!

بلعت ريقى :

- لم أكذب حرفًا واحدًا مما قاله لى فرج .

- بل كذبت .

- مثل؟!

- لقائى بك . اللقاء الذى منحته لك . كأول مخلوق ألقاه منذ أن اختفيت من أرضكم وحياتكم .

كدت أن أصرخ . هل أنت الخط الذى دوخ الدنيا وحير الحكومة، وزرع خيال الناس بالأساطير والأوهام، وأصبح رمزًا للصعايدة؟ ازدحم الكلام بداخلى . حكى كثير كنت أريد أن أقوله له، كنت أريد أن أقول له إن الصعايدة لم يكلمونى عن الأمير همام(1) . ولا عن رفاعة(2) رافع الطهطاوى .

---

(١) ولما بلغ الأمير همام ما حدث من خيانة أقرب الناس إليه، مات مكمودًا مقهورًا قرب إسنا فى ٨ شعبان ١١٨٣هـ. نوفمبر ١٧٦٩م .

الجبــــرتى

(٢) قال رفاعة الطهطاوى فى قصيدته وصف الوابور :

العقـل فى الوابور حار — نبغى الجواب فلا يجيـر
فـإن أردت الاختبـار — علما به فاسـأل خـبير
فـلك بأوج اللـج دار — ومن الحضيـض له مدير
يجرى على عجل كبار — فى رسم شكل مستدير

كان الكلام عن اثنين: الخط[1] وجمال عبد الناصر[2]. قاطع طريق وزعيم. قلتها لنفسى همسًا. وخفت أن يكون الخط الواقف أمامى قد أحس بما أفكر فيه، ما أسهل أن يمسك البندقية ويطخنى، رصاصة واحدة، ثمنها قليل، أقل من ثمن عشوة فى مطعم تعبان، وينتهى عمرى الآن.

لا أجد حتى من يشهد على قتلى بعد قتلى ولا على استشهادى بعد استشهادى، شهيد نعم، شهيد من أجل الناس الذين هناك. عدت أقول لنفسى كلمونى عن قاطع طريق وزعيم، وإن كان الكلام عنك أكثر برغم أن الزعيم فعل لمصر - وليس للصعيد وحده - ما يحتاج إلى شاعر ربابة يحكى ويقول من هذه اللحظة وحتى نهاية حياة العالم.

بدأ الموقف صعبًا وعصيبًا، حاولت الاقتراب منه، ولكنه كان يبتعد عنى بقدر ما أقترب منه. قلت له. لقد رحبت بفكرة اللقيا

---

(١) إن الرصاصة الأخيرة فى قصة الخط لم تطلق بعد.

محمد حسنين هيكل
آخر ساعة
١٩٤٧/٨/١٣

(٢) وبينما كنت أجلس وأنا أفكر أنه بالرغم من أن جمال عبد الناصر لم يولد فى هذا المكان خلافًا للفكرة السائدة. إلا أن بنى مر لم تكن أقل تأثيرًا من الكلية الحربية فى تكوينه اللاحق كقائد للبلاد.

عندما بلغ الرابعة والثلاثين. أى بعد عشرين عامًا من مشروعه فى الاهتمام بالسياسات الثورية.

ايثل مانين
صور من مصر

بدليل أننى تركت كل تليفوناتى مع فرج، وكنت أنوى السفر بالطائرة لو أن الموعد كان قد تحدد فى أى لحظة.

قلت لنفسى يبدو أن الولد فرج مبروك له أعماق وأبعاد وآفاق أكبر من أن أدركها بالعين المجردة، ليس مجرد فراش فى استراحة، إنه مخاوى أرواح الذين ماتوا، يستحضرهم ويرسلهم فى مهمات، هو الذى طلب من الخط أن يأتى إلىَّ ولكن فى المنام.

كنت متأكدًا أنه الخط، برغم صغر حجمه ودقة أطرافه. هل أسأله لماذا لا تبدو عملاقًا يا صاحبى؟! ولكن ماذا أخذنا من العمالقة؟! وماذا أخذ العمالقة من عملقتهم؟ ما أكثر العمالقة الذين خيبوا كل الآمال.

قال لى:

- استعد للمقابلة.

حدد موعده معى، قال لى إنه سيقابلنى فى الساعة الخامسة والعشرين من اليوم الثامن من الأسبوع الخامس من الشهر الثالث عشر من العام رقم سبعة آلاف قبل أو بعد الميلاد، ميلاد السيد المسيح طبعًا.

تساءلت، حتى أوقف سيل الكلمات التى تهدر من فمه:

- وأين؟!

- فى طابا.

نظرت إليه صحت فيه:

ـ ولكنها مازالت أسيرة، الذين اغتصبوها مازالوا . . .

لم أكمل جملتي لأنه كان قد طار في الجو بعيداً عني، اخترق سقف الحجرة والأدوار التي فوقي. تحول إلى نقطة صغيرة بملامح تائهة وحيرى في الأفق البعيد. وإنا أوشك أن أنادي عليه. كانت الميكروفونات تبدأ في نداءات الفجر: «الصلاة خير من النوم». قلت لنفسي إنها فعلا أفضل من النوم. ولكن أين هو النوم يا زمن الميكروفونات. تساءلت: أين صوت الكروان الذي كان يملأ ليل الصعيد بالغناء العذب الشجي؟

كان الخط أسعد حظًا مني، تمكن من التحليق في العلالي، ولكني مربوط إلى ما حولي، بخيوط وسلاسل، لا أعرف كيف أفك منها.

في مساء اليوم التالي، كان مساء الخميس، ليلة الجمعة، نزلت إلى وسط البلد، زحام كأنه يوم الحشر الأعظم، الناس تمشي على شكل طوفان، من يتوقف لحظة يمكن أن يهلك تحت الأقدام.

كان الرئيس المؤمن قد طلب من كل مصري أن يخرج أمواله من تحت البلاطة، وبدأ يعرض البلاد كما لو كانت أنجر فتة. والجدع هو من يحصل على أكبر قدر من الفتة وكانت الاستجابة أسرع مما أتصور.

سألت نفسي وأنا أمشي في الشارع، حكومة فقيرة وشعب غني؟ اكتشفت أن الكلام ربما كانت فيه مبالغة وبعض التجاوز لأصحح جملتي، حكومة فقيرة وشعب أفقر منها، يعوم على سطحه قلة شديدة من الأثرياء الجدد محدثي النعمة.

كان الشارع يسبح فى الأنوار وكان الشبق يطل من أعين النساء. دفعنى المشهد للتفكير فى الصمت والظلام البعيدين القريبين. هناك فى الصعيد، لا أدرى لماذا جمعت بين المشهدين فى صورة واحدة. جزء بالألوان الطبيعية هو الذى أعوم فيه أنا وسط البلد، والجزء الثانى بالأبيض والأسود عبارة عن بنادق وعيدان قصب وآثار لا يطل منها سوى الظلام والصمت. لا أدرى لم جمعت بين بندقية الصعيد، وعمود الضياء الذى أمامى الذى يصل الأرض بالسماء.

فجـأة.

شاهدته.

إنه هو نفسه الذى زارنى فى منام ليلة الأمس. نفس كسمه ورسمه، والبندقية كما هى فى كتفه، كان يقف على ناصية شارعى الشواربى وقصر النيل، لحظة التقاء الشارعين، وما أدراك ما الشواربى، إنه الشارع الذى كنت أتحاشاه، كانت هناك حالة من التناقض بين جيبى وفاترينات عرضه، كنت أسميه شارع السلع الاستفزازية، وليتها بقيت عند حدود شارع واحد، لقد أصبح البر كله شوارع سلع استفزازية.

رأيته بأم عينى فتأكدت أنه هو، خرج من المنام ليقف لى هنا على الناصية، طار برج من عقلى، قفزت فى الهواء، ناديت عليه، يا بطل الصعيد، دست على مشاة، أوقعت ـ غصب عنى ـ رجلا عجوزاً، لطمت امرأة كانت تستعرض مفاتنها.

لكن عندما وصلت إلى المكان الذى كان يقف فيه، لم أجده. كما

لو كان قد تبخر كأنه لم يوجد هنا، كان المشهد قد توقف حولى تماماً، الكل ينظر إلىّ، أشرت إلى المكان الذى كان يقف فيه. قلت للناس:

ـ لقد رأيته هنا منذ برهة، ولكنه حلق فى الجو، طار.

قالوا:

ـ من؟!

قلت:

ـ قطار الصعيد.

رددوا ورائى فى سخرية:

ـ قطار الصعيد.

سألنى واحد:

ـ تقصد بطل الصعيد؟

قبل أن أجيب قال أحد الواقفين:

ـ ما أكثر الأبطال فى بلد بلا بطولة.

قلت:

ـ حتى البندقية كانت معلقة فى كتفه.

قال واحد خيل إليه أنه ظريف:

ـ كتف القطار أم كتف البطل؟

اقترب منى شخص خليع:

ـ كانت البندقية مرخصة أم مخالفة؟ يحملها بطلك أو قطارك بدون رخصة؟

كونوا دائرة من حولى، بدءوا ينشدون :

ـ المجنون . . المجنون . . المجنون .

وأنا حاولت أن أحلق لعلى أجد الخط فى العلالى التى طار إليها منذ برهة . .

و . . و . . و . . و . .

القاهرة ـ مدينة نصر

كتابة أولى: ١٩٨٠

كتابة أخيرة: ٢٠٠٠

الفهـــرس